الآثار السياسية لأزمة المكون الإفريقي لهوية دول شمال إفريقيا: دراسة خاصة للحالة المصرية

د. باسم رزق عدلى مرزوق
مدرس العلوم السياسية بقسم السياسية والاقتصاد،
معهد البحوث والدراسات الإفريقية،
جامعة القاهرة، مصر

الملخص:

نحاول في هذا البحث تقديم دراسة عن الآثار السياسية لأزمة المكون الإفريقي لهوية دول شمال إفريقيا وذلك بالتركيز على دراسة خاصة للحالة المصرية، حيث سنعمد إلى مناقشة أزمة الهوية التي ظهرت إرهاصاتها بعد تراجع الاهتمام البحثي والأكاديمي بتأثير المكون الإفريقي في هوية هذه الدول، ويمكن مناقشة هذا الموضوع من خلال محورين هما:

1– أزمة المكون الأفريقي في هوية الدول الإفروعربية.

2– أزمة المكون الأفريقي في الهوية المصرية.

الكلمات المفتاحية:

الآثار السياسية – المكون الإفريقي – هوية – شمال إفريقيا – الحالة المصرية.

مقدمة:

تسعى كافة المجتمعات البشرية إلى البحث عن أسس التمايز والبقاء والاستقرار، وذلك من خلال إبراز مظاهر وأوجه التماسك والوحدة بين أعضاءها، رغبة في الوصول إلى القوة والقدرة، حتى وإن تم ذلك بدرجة من العنصرية ضد "الأخر"، وهو ما يجعل تلك المجتمعات ترسخ لوحدة الهوية بين أعضاءها، لتكون الأداة التي تعطي أعضاء المجتمع القوة والقدرة على تغيير سمات واقعهم، ويخرج بها عن الأطر التي تسهم في إضعافه، ووقتها يستطيع التحكم في سمات مستقبله، ويرتبط مفهوم الهوية بالبحث عن "الهو" أو "الذات" التي تمايز الإنسان عن الأخر، لذا فهو مفهوم يوضع في مواجهة أو مقارنة مع "الأخر" أو "الغيرية"، وهو من المفاهيم التي تعبر عن الإدراك العام، وسمات العقل الجمعي الذي يقوم على أساس سمات التاريخ، والخبرات المشتركة، والأسس الحضارية، والقيم الاجتماعية، والمشتركات المجتمعية، وهو من المفاهيم التي تتعدد مستويات تحليليها، خاصة في الدول أو الأقاليم التي تتنوع وتتعدد فيها دوائر الانتماء، وتتزايد فيها معدلات التنوع والاختلاف.

وتعبر حالة دول شمال إفريقيا (الدول الإفروعربية) عن حالة تلك الهوية التي تتعدد فيها مستويات وأسس التحليل، فهذه الدول، ووفقا للتاريخ والجغرافيا، تنتمي إلى القارة الأفريقية وهويتها الجماعية، ووفقا للغة والثقافة تصبح هويتها عربية، ووفقاً لطبيعة المعتقد الديني هي دول إسلامية، ولها توجهات نحو الهوية المتوسطية، وبعضها له توجهات نحو الارتباط بالمستعمر، خاصة تلك الدول التي تأثرت بالاستيعاب الثقافي، ومع كل ذلك التنوع لا يمكن الحديث عن أزمة هوية، لأنه لا يوجد ما يحول دون تكامل كل تلك الأبعاد في الشخصية الوطنية لشعوب الدول الإفروعربية، ويبدأ الحديث عن أزمة المكون الإفريقي في هوية هذه الدول وقت الحديث عن تعارض بين أهداف، أسس، تطور، مستقبل، وأطر كل هوية من التي تؤثر على تلك الدول، ويصبح التساؤل الذي تطرحه هذه الورقة حول المكون الإفريقي في هوية تلك الدول، ذات الهوية المتعددة الابعاد والمستويات، وحول تراجع تأثير هذا المكون، وما يكون أن يسببه هذا من أزمة فكرية بين شمال وجنوب القارة، خاصة حينما يحدث اختلاف حول موقع شمال القارة في الهوية الإفريقية الجامعة، وهو ما يمكن أن يؤثر على العلاقات العربية الإفريقية، بل ويؤثر على رؤية وموقف الدول الإفريقية تجاه بعض القضايا العربية، وكذلك موقف الدول العربية تجاه اهتمامات وقضايا القارة الإفريقية.

وتأتي الحالة المصرية لتكون هي الحالة التطبيقية لهذه الأزمة الفكرية، فعلى الرغم من وجود العديد من الأدلة التاريخية، الجغرافية، الإثنية، الحضارية، اللغوية، والدينية التي تؤكد على إفريقية مصر وحضارتها، لكن هناك العديد من الرؤى التي تحاول إنكار تلك الحقيقة، ذلك تحت تأثير رؤى ومدركات استعمارية حاول الأبيض أن يرسخها في العقل الإفريقي الجمعي، وبتأثير من الفترة الاستعمارية والرؤى الغربية التي حاولت تصوير إفريقيا بأنها قارة دون مرجعية حضارية تاريخية، وأن تاريخها يبدأ مع وصول المستعمر إليها، وأن الأخير حمل ها رسالة حضارية تنويرية، بل وكان يرى في ذلك "عبء الرجل الأبيض".

لذا سيكون الهدف من هذه الورقة التأكيد على مكانة وتأثير المكون الإفريقي في هوية دول شمال إفريقيا، ومناقشة أزمة الهوية التي ظهرت إرهاصاتها بعد تراجع الاهتمام البحثي والأكاديمي بتأثير المكون الإفريقي في هوية هذه الدول، ويصبح التساؤل حول تأثير هذا الوضع على العلاقات الإفريقية العربية، ويمكن مناقشة هذه المحاور من خلال مبحثين هما:

المبحث الأول: أزمة المكون الأفريقي في هوية الدول الإفروعربية.

المبحث الثاني: أزمة المكون الأفريقي في الهوية المصرية.

المبحث الأول: أزمة المكون الإفريقي في هوية الدول الإفروعربية

تتعدد وتتنوع دوائر انتماء الدول الإفروعربية ، ويتنوع معها روافد ومصادر تكوين هوية هذه الدول، فهناك اتجاهات ترى أن هذه الدول هي فقط دول عربية إسلامية، وأنها تهتم بهذا المكون على حساب المكون الإفريقي، مؤكدين ذلك بتراجع دور واهتمام هذه الدول بأحداث ومتغيرات القارة الإفريقية، وهو التوجه الذي

وجد لدى صدى وأثار في الفكر الجماعي الإفريقي ففي حيت يرى بعضهم أنه هذه الدول الإفريقية التكوين والأصل والحضارة والثقافة، يرى اتجاه آخر أنها دولة عربية فحسب ولا تنتمي للقارة الإفريقية، وتعاملوا مع الهوية العربية بكونها مرادفة للهوية الإسلامية، وظهرت توجهات رافضة لدور وأفرقة هذه الدول فيما يشبه "Arab Phobia"، مؤكدين أن كثافة الوعي اللوني بين المنحدرين من أصل إفريقي هو السبب في جعل اللون هو العامل الأهم في الهوية القارية الإفريقية، ولذا يتم استبعاد الدول الإفروعربية، بل وتكونت العديد من المدركات السلبية بين دول شمال وجنوب الصحراء، حالت دون تضمين شمال القارة عند الحديث عن الهوية الإفريقية الجامعة، بل وتم خص وصف الأفارقة على بعض الجماعات في شمال القارة، وظهرت العديد من الرؤى الاستعبادية الإقصائية، وأتى ما عرف بـ "الربيع العربي"، ومن بعده انتشار الجماعات الإرهابية المتشددة لتضيف بعدا أضافيا للانفصال، وهي جميعها وقائع أثرت على العلاقات الإفريقية العربية، ليظهر ما يبدو وكأنه "أزمة المكون الإفريقي في هوية الدول الإفروعربية"، وهو ما يمكن دراسته في المطالب التالية:

المطلب الأول: المكون الإفريقي في هوية الدول الإفروعربية.

المطلب الثاني: المدركات المتبادلة ومواقف الفكر من العربفون.

المطلب الثالث: الربيع العربي وأزمة هوية شمال إفريقيا.

المطلب الأول: المكون الأفريقي في هوية الدول الإفروعربية

إن الصراع المستتر والمتناقض بين أولويات وأهداف ومصالح الدول الإفروعربية وتلك التي للطرف الإفريقي لم يحسم بعد على الرغم من محاولات وعمل ونشاط المستويات الثنائية والجماعية للتعاون، فلم تصل جهود التنسيق النظرية لصيغة عملية وفعالة لتغيير مدركات الطرفين نحو بعضهما البعض، وهو ما كان سببا في مغالاة البعض في التمسك بمفاهيم الدولة القومية والسيادة الوطنية، وذلك رفضا لوحدة قارية جامعة، بل وجعل التعاون بينهما يأخذ فقط مستوى جمع الإرادات السياسية للتعبير عن موقف سياسي، في ظل غياب للأبعاد المؤسسية، وحتى هذا الموقف ينتابه العديد من العوارض الناتجة عن عدم الاستقرار، والضغوط الدولية، وحسابات المصالح، والأهداف الوطنية، والتغيير في أولويات كل طرف، وهو ما جعل من الصعب إحصاء سمات التعاون العربي الإفريقي، أو تحديد حاضره للتنبؤ بتوجهاته المستقبلية، لذلك حدث تغير سريع في المدركات العامة الحاكمة للعلاقة، وأصبح يغلب عليها الطابع السلبي، وتغيرات القضايا المشتركة، وتبدلت الصورة الذهنية بين الطرفين(1).

_ وعلى الرغم من أن معظم التيارات الفكرية الإفريقية ارتكزت – ولو جزئيا- على العامل اللوني كمحدد للهوية الإفريقية، ولتحدد من ينتمي للقارة، وكأساس لوحدة قارية يمكن أن تنشأ بين السود، لكن

1 – عبد الملك عودة، "التعاون العربي الإفريقي في العشرين عاماً الماضية: من الفرصة التاريخية إلى المأزق التاريخي"، د. إجلال رأفت (محرر)، **العلاقات العربية الأفريقية** (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، 1994)، ص ص. 16 -17.

كان المقصود بهذا المحدد اللوني المادي المباشر لهذا اللون، لذا يتم استبعاد العرب من هذه الهوية الجامعة، على اعتبار أن إفريقيا موطن السود فحسب، خاصة أن هذه الرؤى ظهرت بين الزنوج قاطني العالم الجديد، والتي كانت بمثابة رد فعل فكري على العنصرية اللونية التي عانت منها المجتمعات الإفريقية والسود، وتجارة الرقيق، والوضع الاجتماعي، والخبرات التاريخية السلبية، وهي جميعها خبرات ارتكزت على أساس اللون، وأكدوا أن مشكلة اللون من المشكلات الرئيسية في العلاقات الدولية، وهي لا تزال تؤثر حتى وقتنا الراهن، حيث أصبح الحديث عن اللون بمثابة الحديث عن انتماء عرقي أو إثني بين الجماعات السوداء فحسب[1].

ومع ذلك هناك بعض المفكرين الأفارقة قد قدم معنى واسع للون ليصبح مرادفا للخبرات السلبية والعنصرية، ويصبح الإنسان الأسود هو كل من مر بخبرات التفرقة والمعاناة والقهر والتميز ضده، معتبرا أن الخبرات التاريخية هي أساس الهوية الجامعة القارية، ويرى أصحاب هذا المعنى للون الأسود إمكانية قبول الجماعات التي تقطن الدول العربية ارتكانا إلى هذا المعنى، بل وحاولوا إبراز أوجه التشابه بين الجامعة الإفريقية والحركة القومية العربية، وهم من أكدوا أن الحضارة المصرية القديمة هي حضارة إفريقية سوداء، رافضين التمييز بين العرب والأفارقة، معتبرين أن ذلك التمييز من معوقات التوجهات الوحدوية في القارة، وأن هذا التمييز هو من مواريث المرحلة الاستعمارية التي يجب التخلص منها، وكأن هذه الرؤية تحاول تفعيل منطق "ماركوس جافي" في الربط بين المعيار اللوني والحيز الجغرافي باستخدام نتائج وآثار الخبرات التاريخية كأساس للهوية القارية، وهو ما جعلهم ينظرون للقارة وسكانها باعتبارهم وحدة متجانسة[2].

وبتطبيق المعيار اللوني – الأكثر تأثيرا في الرؤى والسياسات الإفريقية – يتم في الغالب استبعاد دول شمال القارة من الهوية الإفريقية الجامعة، وهو ما يبرر تراجع اهتمام هذه الدول بأبعاد ومظاهر ودلالات هذا المكون الإفريقي في الهوية الوطنية لهذه الدول، حيث تراجعت مكانة إفريقيا في الفكر السياسي العربي، ولا تزال مجالات الاهتمام الفكري، وكذلك الدراسات والدوريات العربية تقف عند حد الوصف، ولا تتعدى هذا المستوى إلا في حالات قليلة، لذ ترسخ في المدركات العامة لشعوب الدول الإفروعربية أن الإفريقي هو "الأخر"، وهو ما حمل معه تأكيد على أن شعوب هذه الدول أنهم ليسوا من الأفارقة، وأنها فقط عربية الأصل والثقافة، وهو ما كان نتيجة العديد من الخبرات التاريخية الاستعمارية التي تؤمن بالفصل بين شمال وجنوب القارة، ولذا كان الرد الإفريقي على ذات النحو الإستبعادي، حيث تم إغفال شمال القارة من الدراسات والبحوث والكتب الموسوعية الإفريقية، وتراجعت الترجمات من اللغة العربية، وتم قصر وصف إفريقي من دول

1 - Lionel K. Mcpherson, Tommie Shelby, "Blackness and Blood: Interpreting African American Identity", **Philosophy and Public Affairs** (New Jersey: Blackwell Publishing, Vol. 2, No. 2, Spring 2004), pp. 171-177.

2 - Walter Rodney, "African History in the Service of Black Liberation", **Small Axe** (Carolina: Duke University Press, No.10, September 2001), pp. 71-74.

الشمال على بعض الجماعات، باعتبار أن هذه الدول جزء عربي، وكأن إفريقيا باتت تبدأ من جنوب الصحراء الكبرى، خاصة في ظل غياب موقف عربي محدد واضح تجاه بعض القضايا الإفريقية[1].

ومع كافة المحاولات الفكرية لتأكيد الهوية الأفريقية لشمال القارة، ومحاولة ترسيخ الأسس القارية الشاملة كمعيار ومحدد للانتماء الإفريقي لكافة الدول التي تقع جغرافيا في القارة الإفريقية، تلك المحددات التي تقوم على ترك مظاهر التقسيم والاختلاف على أساس اللون أو الانتماء الإثني، أو الديني، أو الإقليمي، ومع ذلك تؤكد الخبرة التاريخية أن المعايير غير الجغرافية لم تختف من المدركات الكلية الإفريقية، خاصة عندما يتعلق الأمر بشكل وتطور وقضايا العلاقة بين الإفروعرب وأفارقة جنوب الصحراء، فلا تزال هناك خبرات ومدركات وتوجهات سلبية تسيطر على سلوك شعوب وقادة الدول الإفريقية تجاه شمال إفريقيا ودولها وشعوبها، وتتنوع العوامل المسؤولة عن تكوين تلك المدركات السلبية، ويمكن من دراسة تلك العوامل أن يتم تقديم رؤية تصحيحية لتلك المدركات والرؤى، بما يمكن أن يحمل ايجابيات على العلاقة بين الطرفين، وعلى إدراك الإفروعرب لأهمية المكون الإفريقي في هويتهم الكلية[2].

لقد حمل وأدى اختلاف الرؤى بين شمال وجنوب القارة على مكانة وترتيب المكون الأفريقي في هوية الدول الأفروعربية إلى نتائج سياسية واقتصادية وتكاملية على مستوى القارة، وأجهضت محاولات عدة للوصول إلى وحدة قارية، وحالت دون تعميق العلاقات بين الطرفين، بل ويمكن اعتبارها من العوامل المفسرة لكثير من المسائل والقضايا العالقة، فوقتما ينظر الأفارقة إلى مصر باعتبار أن ما قامت به في مراحل تاريخية مع دول حوض النيل والسودان بأنه "غزو أو استعمار" لدول إفريقية، وأن ما قامت به السودان مع جنوب السودان هو حرب دولة عربية مع إقليم/دولة إفريقية، وأن العربي ما هو إلا تاجر رقيق، وأن الدول العربية الإسلامية أصبحت مؤخرا مصدر الجماعات المتشددة الإرهابية، وأن تأثير عدم الاستقرار بها يمكن أن ينتقل إلى الدول الإفريقية، وقتها يمكن الحديث ليس فقط عن عدم إفريقية تلك الدول، أو مشاكل وصراعات تتعلق بالمياه والحدود والأنهار، لكن بدأ يتم التأكيد على أن لإفريقيا إسلام يختلف عن ذلك الإسلام العربي الوهابي مصدر الإرهاب (بحسب تصورهم)، بل وتصبح الدعوة أن يغادر العرب قارة السود، وهو ما يحتاج إلى فهم المدركات المسؤولة عن تلك المواقف، وهل هناك إمكانية لتغيير سمات وأسس تلك المدركات[3].

1- إبراهيم نصر الدين، **دراسات في العلاقات الدولية الأفريقية** (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2011)، ص ص 13-15 و 115-117 و 362-363.

2 – صبحي قنصوة، "قضية الهوية وأثرها على الإدراك الإفريقي للعالم العربي"، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية (محرر)، **ندوة العلاقات العربية الأفريقية** (طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1998)، ص 198.

3 – إبراهيم نصر الدين، **مرجع سابق**، ص ص 113-115

المطلب الثاني: المدركات المتبادلة والمواقف الفكرية من الدول الإفروعربية

يكشف تحليل الرؤى والمواقف الإفريقية والعربية عن أن هناك سوء إدراك متبادل يؤثر على رؤية ومواقف كل طرف لهوية الطرف الأخر، بل ويؤثر سلبا على القضايا والعلاقات التي يمكن أن تجمع بين دول الطرفين، في حين تكشف ممارسات ورؤى ومواقف الطرفين عن أن هناك صورة ايجابية للأبيض المستعمر الفعلي للقارة والعالم العربي، فقد قبلت الدول الإفريقية وجود جماعات استيطانية، وأقليات آسيوية، بل ومنحت هذه الجماعات والأقليات جنسية دول إفريقية، بل وباتت اللغة الاستعمارية هي اللغة الرسمية للكثير من دول القارة، بشكل أصبحت معه هذه اللغات هي الرافد الأهم في تشكيل هويات كافة دول القارة، وهو أيضا حال الدول العربية، فهذه طبيعة نظرة الطرفين نحو الأبيض المستعمر رغم طبيعة دوره التاريخي، واستمرار ممارساته لنهب ثروت دول الطرفين، ودوره في إشعال الحروب الأهلية، والتدخل في الشئون الداخلية، وانتهاك السيادة الوطنية، وتقابلها صورة ومدركات سلبية بين طرفين من المفترض أنهما قارة واحدة، وشركاء كفاح ضد هذا المستعمر، ويشتركان في العديد من الخبرات والروافد التي تشكل الهوية الوطنية والجماعية لدولهما[1].

ولا تزال هناك صورة سلبية تسيطر على مدركات الأفارقة والعرب نحو بعضهم البعض بالرغم من أن هناك تداخلا واضحا، وتراثا ثقافيا مشتركا، وخبرات استعمارية متشابهة، واعتمادا متبادلا فى التخلص من الاستعمار بين الطرفين، وبالرغم أيضا من أن الطرفين يخضعان لتبعية اقتصادية وتأثيرات العولمة التي تحاول جعل مضمون الهويات الحضارية الإفريقية والعربية فى خدمة المصالح الغربية، ويمكن فهم طبيعة تلك المدركات السلبية بين الطرفين بفهم من هو الإفريقي بالنسبة للعربي؟ ومن هو العربي فى مدركات وتصور هذا الإفريقي؟ كذلك ما لهذه المدركات من تأثيرات تزيد من تفاقم أزمة المكون الإفريقي في هوية الدول الإفروعربية.[2]

وترتبط صورة الإفريقي فى إدراك الشعوب العربية غالبا بهوية عنصرية لونية، وأحيانا بهوية جغرافية محددة (إفريقيا جنوب الصحراء، أو إفريقيا غير العربية)، وحتى إن تم ربطه بهوية حضارية يتم ذلك من خلال الأطر الاستعمارية سواء الإنجلوفونية أو الفرانكفونية، دون النظر إليه كمواطن يعيش فى دولة داخل إطار القارة الإفريقية، ولو كانت الصورة الأخيرة هي المسيطرة لساهمت –على الأقل– فى قبول العربي كأي أوروبي استوطن القارة، وحمل جنسية دولة إفريقية، لكن الثابت أن نظرة العربي للأفارقة تنطوي على بعض الأبعاد الاستعلائية

1 – إبراهيم نصر الدين، **مرجع سابق**، ص 114.

2 – **نفس المرجع**، ص ص. 114 – 115.

يتم نسيانها حين يكون التعامل مع شخص ذي أصول إفريقية يعيش فى ويحمل جنسية دولة غربية، وهو ما كَوَّن صورة سلبية لدى الإفريقي عن العربي[1].

كذلك تحتوى صورة العربي في المدركات الإفريقية على العديد من الجوانب السلبية على ذات النحو الذي عليه صورة الإفريقي في مدركات العربي؛ فالعربي فى إدراك الإفريقي هو تاجر الرقيق أحياناً، وشخص لديه نزعات توسعية استعمارية أحياناً أخرى[2]، وله مظهر بعينه، فهو شخص انتهازي توسعي، أضيفت إليه مؤخرا صفة الإرهابي صاحب الإسلام المتشدد، ويرون أن العربي يسعى لنشر ثقافته العربية الإسلامية قسرا في إفريقيا، حيث تسيطر على الذاكرة الجماعية الإفريقية صورة العربي حامل السيف، خصوصا مع انتشار نمط التعليم الغربي الذي جعل الثقافة العربية غير جذابة للأفارقة، ومع اتجاه المساعدات والتدفقات المالية العربية إلى قطاعات داخل دول يغلب عليها الإسلام، وهو ما يتوافق مع صورة يروج لها الغرب تحوي تحول الأفارقة قسرا إلى الإسلام، وأن عرب الشمال يسعون لغزو القارة ثقافيا، ويحاولون تصوير أن ما حدث عند اكتشاف مصر لجنوبها، ودخولها إلى مناطق عدة من القارة، وما حدث عند دخول الإسلام، كل هذا كان عبارة عن غزو عربي للقارة، وهو ما يجد دعما من أنصار التيارات المسيحية الغربية المتطرفة التي تحارب الإسلام، والذين يحاولون قلب الحقائق، وطمس الخبرات العربية الإفريقية المشتركة[3].

ويقابل هذه التوجهات السلبية نحو الدول والجماعات الإفروعربية، اتجاه فكري أفريقي آخر يدعم أسس قبول هذه الجماعات والشعوب التي في هذه الدول، يأتي على رأسه العديد من المفكرين أهمهم ويليام ديبوس، وماركوس جارفي، وكوامي نكروما الذي كان مرتبط بمصر بروابط عدة[4].

1 – إبراهيم نصر الدين، **مرجع سابق** ، ص ص 113 – 115.

2 - Polly Hill, "Comparative West Africa Farm-Slavery System (South of Sahel) With Special Reference to Muslim Kano Emirate (N. Nigeria)", Joan Ralph Willis (ed.), **Slaves & Slavery in Muslim Africa**, **Volume II** (London: Frank Cass and Company Limited, 1985), pp. 32-49. &

- R. S. O'Fahey, "Slavery and Society in Darfur", Joan Ralph Willis (ed.), **op. cit.**, pp. 82-93.

3 - S. J. Dima, "Afro-Arab Relations: Romantic or Real?", B.F. Bankie, K. Mchomhu (eds.), **Pan-Afriacanism**: **African Nationalism Strengthening the Unity of Africa and It's Diaspora** (Asmara: the Red Sea Press, 2008), pp. 252-263.

4 - G. R. Coulthard, "Negritude- Reality and Mystification", **Caribbean Studies** (Washington, D.C: Institute of Caribbean Studies, Vol. 10, No. 1, April 1970), pp. 45-47. **&**

- W. E. B. Du Bois, "On Being Ashamed of Oneself: An Essay on Race Pride", Fred L. Hord (ed.), **I Am Because We Are**: **Readings in Black Philosophy** (Massachusetts: University of Massachusetts Press, 1985), pp. 252-255.

قد أدت المدركات السابقة إلى تكوين رؤية استعبادية عند بعض الأفارقة تغلب على موقفهم تجاه الهوية الإفريقية للشعوب العربية، ولم يعترفوا بأن هوية هذه الشعوب الإسلامية والعربية تعادل الأبعاد الإنجلوفونية والفرانكفونية لدى الدول الإفريقية، لذلك تطرفت بعض الرؤى الإفريقية إلى حد إنكار هوية وتواجد ودور العرب الحضاري في القارة الإفريقية، وإن كان هناك تيار آخر عمل على إيجاد الأسس والمحددات التي تقبل العرب ضمن أطر هذه الهوية الإفريقية[1]، ومن أمثلة الاتجاه الأول ما قدمه رئيس دولة مالاوي الأسبق "كاموزوا باندا"، حيث يرى أن ميراث العلاقات العربية الإفريقية قد حرم العرب من أن يصبحوا أصدقاء لإفريقيا، وتأتى صعوبة أن يصبح الجيل الحالي من العرب أصدقاء لإفريقيا نتيجة ميراث أخطاء وسلوك وممارسات أجدادهم[2]، وحاول البعض الآخر تأكيد هذه النتيجة من خلال تحليل الحرب الأهلية في السودان، سواء التي كانت بين الشمال والجنوب، أو التي تحدث بين السلطة ومتمردي دارفور، حيث يؤكد على أن السبب الرئيسي هو الاستعلاء العربي الكامن فى مضمون الثقافة العربية الإسلامية للسلطة السودانية[3].

أيضا حاول بعض الاتجاهات تفسير اختلاف المدركات التي بين العرب والأفارقة بتأكيده على أن السبب يكمن فى اختلاف البيئة المادية، والهياكل الاجتماعية، والأنساق القيمية، والخبرات التاريخية، والتأثيرات الثقافية التي للطرفين؛ ففي حين تسيطر الثقافة العربية الإسلامية على المدركات العربية، فإن النظرة الإفريقانية هي المنطلق لجل الرؤى الإفريقية، وقد خضعت هذه الرؤى لتأثير الخبرات الاستعمارية، وأنشطة الإرساليات التبشيرية التي حاولت أن ترسخ فى معتقداتهم أن العربي هو تاجر الرقيق، وأن المسيحية جاءت لإنهاء هذه المرحلة، حتى أن بعض قادة القارة هاجم دولا عربية بعينها قائلا: "لعل مندوب السعودية معتاد على شراء الزنوج، ولكنه لا يمكنه أبدا شراءنا"، وأكد الأفارقة على أن صورة الأسود فى الإنتاج الفكري والثقافي العربي لا تبعث على الاحترام، فهي تتسم بالاحتقار، وانخفاض مستوى الذكاء، وهذا ما جعل رئيس السنغال "عبدو ضيوف" فى قمة منظمة المؤتمر الإسلامي بداكار سنة 1992 يقول: "إن هناك مشكلة، ولا

1- إبراهيم نصر الدين، **مرجع سابق** ، ص ص 113- 114.

2 - Dunston M. Wai, "African-Arab Relations from Slavery to Petro-Jihad", **A Journal of Opinion** (New Jersey: African Studies Association, Vol. 13, 1984), p. 9.

3 - M. Jalâl Haashim, "Islamisation and Arabisation of African as A Mean to Political Power in the Sudan: Contradiction of Discrimination Based on the Blackness of Skin and Stigma of Slavery and Their Contribution to the Civil War", B. F. Bankie, K. Mchmbu (eds.), **op**. **cit**., pp. 265-290. &

- El-Tahir Adam El-Faki, "Afro-Arab Relations: A Complex Socio-Political Composition", B. F. Bankie, K. Mchmbu (eds.), **op**. **cit**., pp. 294-302.

أريد أن أصل إلى استخدام تعبير الاحتقار الثقافي، فنحن نحترم العرب، بينما هم لا يحترموننا"، حتى أن بعض الرؤى تروج إلى أن مصر تسعى إلى تكوين إمبراطورية ثقافية لها، وهى مقدمة لغزو العرب لإفريقيا ثقافيا، وأكدوا على أن العالم العربي المتخلف المنقسم السلبي فى تعامله مع مشكلاته لا ينفع لو كان صديقا، ولن يضر لو كان عدوا(1).

ويؤكد أنصار النظرة السلبية نحو الهوية الإفريقية للشعوب العربية أنه رغم أن القارة الإفريقية بها أغلبية إسلامية، لكن لا يكفي الإسلام لكي يكون هناك تماسك بين الأفارقة المسلمين والعرب، ويدللون على ذلك بنهج العرب التدخلي، وأنشطتهم فى شرق إفريقيا، وطبيعة نظرتهم للحروب التى أعقبت الاستقلال، وأكدوا أن الوفرات الاقتصادية التي حققها العرب جعلتهم يرون أن القارة الإفريقية بها فراغ ثقافي، وأن سكانها غير متحضرين، ويجب أن يتم ملء ذلك بالثقافة العربية الإسلامية، ولذا فرجال الأعمال العرب لا ثقة لهم في القيام بأعمال تجارية في القارة الإفريقية، حتى أن بعض الأفارقة يرى فى الصحراء الكبرى حدا سياسيا وعائقا طبيعيا أمام الغزو العربي لإفريقيا، بل ويراها أداة حماية لإفريقيا من التأثيرات الاستعمارية العربية(2).

وهناك اتجاه آخر بين الأفارقة له تصور يخالف ما سبقت الإشارة إليه، فقد ربط بعضهم بين كافة أجزاء القارة عن طريق الحضارة المصرية القديمة، مؤكدين أنها أصل الحضارات الإفريقية، وأن لها الأسبقية الحضارية والتاريخية حتى عن الغرب، وهذا ما تمت الإشارة إليه سابقا، وهذا هو مضمون تيار الزنوجة(3)، وإن كان البعض قد حاول الترويج لزعم مفاده إنكار الدور التاريخي والحضاري المصري، مؤكدا أن النوبة الجماعة الإفريقية هي أصل الحضارة المصرية القديمة، لذا فالمصريون الآن ليسوا أحفاد المصريين القدماء، فهم قد أتوا من شبة الجزيرة العربية(4)، وعلى عكس هذا الاتجاه، كان بعض رواد الجامعة الإفريقية من زعماء القارة بعض الاستقلال، أمثال الزعيم الغاني "كوامي نكروما"، والرئيس المالي "موديبو كيتا"، والرئيس الغيني "أحمد سيكوتوري"، والرئيس التنزاني "جوليوس نيريري"، يؤكدون جميعهم على أن الصحراء الكبرى لا تعتبر عن معوقا أو محددا أو مانعا للتماسك الذي يجب أن يحدث بين الأفارقة جنوب الصحراء والعرب الموجودين في الشمال، وأكدوا أيضا على أن العرب شركاء فى الكفاح ضد الاستعمار، والإمبريالية، والاستعمار الجديد، وهذا ما حاولوا ترجمته فى منظمة الوحدة الإفريقية، وفسر البعض هذا الموقف فى ضوء الموقف المصري خلال

1 - Dunston M. Wai, **op**. **cit**., p. 9 & 10. & – صبحي قنصوة، **مرجع سابق** ، ص ص. 202 – 204

2 - Dunston M. Wai, **op**. **cit**., p. 10.

3 - John Henrik Clarke, "Cheikh Anta Diop and the New Light on African History", **Transition** (Indiana: Indiana University Press, No. 46, 1974), pp. 74-76.

4 - Omari H. Kokole, "the Islamic Factor in African-Arab Relations", **Third World Quarterly** (London: Taylor & Français, Ltd, Vol. 6, No.3, July 1984), pp. 687-692.

فترة حكم جمال عبد الناصر ومساعدته في استقلال الدول الإفريقية، وهو ما جعل البعض يصفه بكونه موقفا نفعيا مرتبطا بحقبة الحرب المصرية الإسرائيلية، وموقف دول القارة وقتها، والتي كانت قد تأثرت بنتائج الحرب بعد رفع أسعار البترول، وبخاصة الدول المستوردة البترول منها، وأن الدول الأفريقية أدركت بعد الحرب وأسعار البترول أن الدول العربية لا تهتم بالقارة، ولا بواقع دولها وحالها التنموي[1].

وترى بعض الاتجاهات أن الإسلام يمكن أن يشكل عنصراً ثقافياً موحداً للقارة الإفريقية، ويمكن أن يشكل بوتقة صهر مختلف ثقافات القارة الإفريقية؛ لأنه: "على الرغم من الهجمات الإيديولوجية من الاستعمار، والبعثات التبشيرية ضد الإسلام والعرب، انتشر الإسلام بسرعة في الأقاليم الفرانكفونية والأنجلوفونية فى غرب إفريقيا"، وينبهون لأهمية تدارك أثر الاستعمار على هذه التوجهات، لأن: "المستعمرين خلقوا مشكلة حادة بين الإفروعرب وبين الأفارقة، وكذلك بين الإفروعرب أنفسهم، حيث تم خلق صراعات بين الإفروعرب في إريتريا، وفى الصومال، وفى زنجبار، وفى تنجانيقا، وفى كينيا، وفى موزمبيق"[2].

ويؤكد أنصار الوحدة الأفريقية التي تشمل شمال القارة أن عرب القارة لابد أن يحملوا الهوية الأفريقية، ويجب أن يكون هناك اعتراف إفريقي بهذا الواقع، وأكدوا أن الارتباط بشمال القارة عميق ودائم، ومرجع هذا الارتباط هو التاريخ والخبرات المشتركة، حيث أكد "إليون جوب" أن المؤرخ العربي هو من كتب ونقل تاريخ إفريقيا القديم والوسيط، وأن إفريقيا الحديثة هي من نتاج تلك الخبرات التاريخية المشتركة، وأن الزنوجة باعتبارها أحد أوجه التعبير عن الهوية الوحدوية القارية قد نتجت عن هذه الخبرات المشتركة، ولذا يجب أن تستمر وحدة القارة مع مراعاة الاختلافات والخصوصيات والسمات التي ينفرد بها كل إقليم من أقاليم القارة، ولكن هذه المناطق مجتمعة تشكل ما يطلق عليه الشخصية الإفريقية التي هي أساس الوحدة الإفريقية[3].

وقد انعكست تلك المدركات والصور المتبادلة على طبيعة العلاقات التي تجمع بين الطرفين؛ ففي الوقت الذي يشككون فيه في الهوية الإفريقية لشمال القارة يقبلون شعوب موريشيوس وسيشل وجزر القمر، رغم أن غالبية سكانهم من أصول غير أفريقية، ولا يزالون يتحدثون بلغاتهم الآسيوية الأصلية، ويدينون بمعتقداتهم الأصلية، كذلك لا يتم التشكيك فى هوية إثيوبيا التي ظلت حتى خمسينيات القرن العشرين تصنف نفسها كدولة شرق أوسطية، مع أنه لا تتوافر المقومات الجغرافية ولا الإثنية ولا اللغوية لإدعاء ذلك، بل فى الوقت الذي يُنكر فيه على عرب القارة هويتهم الإفريقية أصبح يقبل الرجل الأبيض، ويُضفى عليه الجنسية والهوية الإفريقية بحكم استيطانه في بعض البلدان الإفريقية، وهذا لا ينطبق على الشمال الذي لا يزال يسكنه

1 - Dunston M. Wai, **op**. **cit**., pp. 10-13.

2 - S. J. Dima, **op**. **cit**., pp. 252 - 253.

3 – عبد الملك عودة، **فكرة الوحدة الأفريقية** (القاهرة: دار النهضة العربية، 1966)، ص ص 73 – 74.

أحفاد من عاصروا الفتح العربي لشمال القارة، الذين استوعبوا الثقافة العربية والدين الإسلامي، ولا يزالون أفارقة، ولذا ينتقد أنصار هذا الاتجاه الاهتمام الإفريقي الجزئي ببعض جماعات شمال القارة، ويعتبرون أن ذلك تطبيق لرؤية غربية تقسيمية للقارة الإفريقية[1].

ويتجه العديد من المفكرين الأفارقة عند مناقشتهم هوية عرب القارة الإفريقية إلى إنكار هذا المكون الإفريقي فى هوية هذه الشعوب عدا بعض الجماعات التي يصنفونها بأنها أقليات إفريقية فى مجتمع عربي، ويكون تركيزهم على الأقباط (مسيحي مصر)، والأمازيغ أو البربر فى الحزام الممتد من واحة سيوة فى مصر غربا حتى جزر الكناري فى غرب القارة، وكذلك على الجماعات التي تعيش فى النوبة سواء في مصر أو فى السودان، حيث يصنف الكثير منهم الأقباط بأنهم جماعة إفريقية، وأنهم الجماعة التي تحمل الصفات الإفريقية، ولم تذب في تأثيرات شبه الجزيرة العربية التي أتت مع الإسلام، وهى جماعة تعود جذورها إلى المصريين القدماء، وهذا ما تثبته المشتركات اللغوية التي بين اللغة القبطية واللغة المصرية القديمة، وبالتالي ينكرون صفة المصري عن غير القبطي فى مصر، ويضعون الأقباط فى مواجهة المسلمين العرب، وأكدوا أن الأقباط تعرضوا لاضطهاد تحت الحكم العربي، وأن تحولهم للإسلام جاء قسرا تحت وطأة الضرائب المبالغ فيها والاضطهاد، وأنهم قد استوعبوا اللغة العربية بسبب انتشارهم الجغرافي بشكل كان من الصعب معه الحفاظ على الهوية اللغوية باللغة القبطية، وأكدوا أن استيعاب الأقباط للغة العربية يقدم دليلا على مرونة الهوية القبطية، وهذا يتشابه مع حالة البربر والنوبيين في الحفاظ على هويتهم، لكن يختلف موقفهم من حيث الحفاظ على لغتهم المستقلة، بل ويرون أن هذه الجماعات الثلاث تشكل إثنيات بعينها في مواجهة العرب المستوطنين الذين شوهوا تاريخ هذا الإقليم الإفريقي[2].

ويرى البعض أن تراجع دور مصر التاريخي بعد المرحلة الناصرية هو المسئول عن تراجع الدور العربي، وكذلك حاول البعض إعادة بعث المواريث التاريخية، وتصحيح بعض المدركات السلبية تجاه القارة والساسة والمفكرين الأفارقة، وبدأو يعيدون إلى الأفارقة فكرة العرب العنصريين تجار الرقيق الذين لديهم مشروع توسعي استعماري فى القارة الأفريقية خصوصاً بعد انضمام الصومال، وجيبوتي، وجزر القمر إلى جامعة الدول العربية،

---

1 - إبراهيم نصر الدين، **مرجع سابق** ، ص ص.116 – 117.

2 - Ryan Dellolio, "North Africa Ethnic Minorities, on Identity and Language: A Comparative Analysis of Berbers and the Copts", **Paper Presented at George Washington University**, **Dec**. **8**, **2008** (Washington, D.C.: George Washington University, 2008), pp. 1-11. &

- Bruce Maddy Weitzman, "Ethno-Politics and Globalization in North Africa: the Berber Culture Movement", **The Journal of North African Studies** (London: Routledge, Taylor & Français, Ltd, Vol. 11, No. 1, March 2006), pp. 71-81.

وكذلك طبيعة الموقف العربي عند حدوث صراع عربي– إفريقي، بالرغم من أن ذلك يمكن الرد عليه باستيلاء "جوليوس نيريري" على زنجبار وضمها إلى تنجانيقا، وطمس الهوية العربية فى الصومال وتدميرها، وفصل جنوب السودان وإخراجه عن الهوية العربية، كذلك تم طمس هوية جيبوتي وجزر القمر، لذا تعقدت مسألة الهوية بين العرب والأفارقة، حيث إن المدركات السلبية على المستوى الرسمي والفكري والحركي أضيفت إليها حالة الإرهاب التكفيري كصفة لشمال القارة، حيث أصبح يُروج له على أنه قادم إلى القارة من الشمال العربي، وهذا يقدم دليلاً على أن العلاقات العربية الأفريقية تتجه إلى الأسوأ مستقبليا[1].

فعلى المستوى الرسمي، كانت اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية لمنظمة الوحدة الأفريقية، لكن مع التحول إلى الاتحاد الإفريقي أصبحت اللغة العربية لغة أجنبية كأي لغة أتت مع الاستعمار، حيث تنص المادة 25 من القانون التأسيسي للاتحاد الإفريقي على أن: "تكون لغات عمل الاتحاد وجميع المؤسسات التابعة له هي اللغات الإفريقية إذا أمكن والعربية والإنجليزية والبرتغالية"[2]، وفى ذات السياق جاء ميثاق النهضة الثقافية الأفريقية فى شهر جانفي 2006 لينص في مادته الثامنة عشر على أنه: "يتعين على الدول الإفريقية إدراك الحاجة إلى تنمية اللغات الإفريقية لضمان تقدمها الثقافي، وتعجيل تنميتها الاقتصادية والاجتماعية، ولتحقيق ذلك يجب أن تسعى إلى صياغة سياسات لغوية وطنية ذات صلة"، وعاد فى المادة الرابعة والثلاثين ليقول: "يتم تحرير الوثيقة الأصلية إذا أمكن باللغات الإفريقية وبالعربية والإنجليزية والفرنسية والبرتغالية..."، لتصبح دلالة إضافية على وضع اللغة العربية كلغة مستعمر مع لغات المستعمرين الغربيين، وهو ما يقدم دلالة على طبيعة مدركات الأفارقة نحو الإنسان العربي[3].

أيضا اتجه العديد من القادة والمسؤولين الأفارقة إلى المجاهرة بحقيقة موقفهم وتوجههم تجاه شمال القارة وموقعه فى الهوية الإفريقية، واتخذوا منطق التقسيم أداة للتعبير عن موقفهم ولتنفيذ توجهاتهم، لذلك أصدر مفوض الاتحاد الإفريقي السابق "ألفا عمر كوناري" تقريرا فى شهر ماي 2004 يحمل عنوان "الخطة الإستراتيجية للاتحاد الإفريقي: رؤية ومهمة الاتحاد الأفريقي" حيث يؤكد فى مجلده الأول على أن: "النوبة وامتدادها الصحراوي هي أم مصر"، ليؤكد قناعة العديد من الأفارقة بأن الحضارة المصرية القديمة التي هي أصل الحضارات الإفريقية جاءت من جماعة إفريقية هي الجماعة النوبية، وبالتالي فإن النوبة أصل الحضارة المصرية، وهي المرجعية الحضارية لإفريقيا، ثم قام في ملحقات هذا التقرير بوضع خارطة للغات المنتشرة فى

1 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك نظم حكم ثورات الربيع العربى على العلاقات العربية الأفريقية"، **مجلة الشئون الأفريقية** (القاهرة: معهد البحوث والدراسات الأفريقية، المجلد الأول، ع.2، أفريل 2013)، ص. 230.

2 – الاتحاد الإفريقي، القانون التأسيسي للاتحاد الإفريقي"، المادة 25، نقلا عن الموقع: **www.au.int/about/constitutive_act**

3 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق** ، ص ص. 230 -231.

الشمال الإفريقي، حيث قام بوضع اللغة العربية واللغة النوبية أمام اللغات المنتشرة في مصر، وأمام الجزائر والمغرب وضع اللغة العربية واللغة البربرية، وأمام ليبيا وضع اللغة العربية، وفى السودان أكد أن اللغات المنتشرة هي العربية والنوبية والدينكا ومساليتو شلوك ونوير وزاندي وفور، وفى تونس توجد العربية، وفى جيبوتي هناك اللغة العربية إلى جانب العفر والصومالية، وفي موريتانيا أكد انتشار اللغات الحسنية والعربية ودولوف وسونينكي والفولانية، وفى الصومال هناك العربية والصومالية، وفي جزر القمر هناك شيكو وموروا، وقد حاول التقرير وضع جماعات بعينها فى هذه الدول العربية لها لغات مستقلة، وهوية لغوية مستقلة، بما يمكن أن يؤكد توجه بعض رؤى القارة فى إعادة بعث هذه الهويات الإفريقية، التي لا تتوافر لبقية جماعات الشعوب العربية[1].

ويتوافق هذا التوجه السياسي الرسمي مع رؤى وأطروحات وأنساق فكرية حاولت إفراغ العرب من المكون الإفريقي في هويتهم الجمعية، حيث لا يوجد في أي عمل موسوعي عن القارة حديثا عن شمال القارة، إنما ينصرف إلى الجزء الذي في جنوب الصحراء، ويكتفي بالحديث عن الجماعات التي يراها إفريقية، وتعيش وسط العرب، والتي سبقت الإشارة إليها، حتى عند الحديث عن التقسيم الثقافي للقارة يتحدثون عن الأنجلوفون والفرانكوفون والليزوفون، ويتجاهلون العربفون، وهو ما يمكن التدليل عليه من خلال حركة الترجمة التى تغفل الترجمة من اللغة العربية مفضلة اللغات الغربية عليها، وهو ما يتضح فى التوجه الفكري لكل من "يوري موسيفني" الرئيس الأوغندي، و"د.كاموزوا باندا" رئيس مالاوي[2].

المطلب الثالث: الربيع العربي وأزمة هوية شمال أفريقيا

هناك العديد من جوانب سوء الإدراك المرتبط بمكونات وأسس هوية الدول العربية الإفريقية تؤثر على طبيعة ومضمون نظرة الأفارقة نحو هوية وموقع وسلوك وممارسات تلك الدول العربية، لذلك تم طرح مفهوم الإفريقي كمرادف لغير العربي، وأكد كثيرون على أبعاد التناقض بين العروبة والإفريقانية، وتعاملوا مع مفاهيم ك "العرب وأفريقيا"، و"العلاقات العربية الإفريقية"، وكأنها مفاهيم تجمع بين طرفين لا تداخل بينهما، ومنها تصبح الهوية الإفريقية عند البعض تعبيرا عن الهوية غير العربية، ومع أن هذا التقسيم لم يستند إلى أي من

1 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق** ، ص ص. 230 -231. و

- Alpha Oumar Konare, **Strategic Plan of the African Union Commissions**, **Volume I**: **Vision and Mission of the African Union** (Addis Ababa: African Union, May 2005), pp. 4, 48, & 49

2 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق** ، ص ص. 231 – 232. و - Dunston M. Wai, **op**. **cit**., p. 9.

الأسس الموضوعية الحاسمة، العنصرية أو الدينية أو الثقافية أو غيرها، لكن كان له العديد من الآثار على العلاقات التي تجمع بين الأفارقة العرب وغير العرب(1).

وقد أدت تلك المدركات وما ترتب عليها من سياسات وممارسات إلى تعميق صور الانقسام بين الطرفين، بل ويقلل هذا من أهمية الأسس ومظاهر الترابط التي تجمع الطرفين، بل ويهدف لخلق جبهة تُضاد العربية، ولذا حاول البعض تصوير بعض الصراعات (جنوب وشمال السودان- دارفور- موريتانيا والسنغال- الصومال وإثيوبيا- مشكلة المياه بين مصر وإثيوبيا- ليبيا وتشاد....) بأنها صراعات عربية- إفريقية (2)، وهو ما ينطوي على محاولة التشكيك فى حقيقة الانتماء العربي إلى إفريقيا، وهو ما شكل الدافع لبعض القادة الأفارقة للقول: "لكن، هل يعتبر المصري أفريقيا بنفس المعنى الذي نعتبر به نكروما أفريقيا؟"، وشكك بعضهم فى ترتيب دوائر الانتماء للدول العربية، وفي موقع إفريقيا وفي أسس الهوية الشاملة لهذه الدول، وهو الاتجاه الذي لقي قبولا وترحيبا ودعما من الغرب وسياساته ومفكريه، وحاولت الآليات الغربية تفعيل ما رسخه الاستعمار من أسس للعداء والانقسام بين عرب القارة وأفارقتها، وأكدوا على مفهوم "إفريقيا السوداء" و"إفريقيا العربية البيضاء"، بل وروجوا لرؤية مفادها أن الإسلام الذي للأفارقة هو إسلام إفريقي مختلف عن الإسلام المتشدد الوهابي الذي يوجد في شمال القارة، وحاولوا بعدد من السياسات تقليص تأثير الثقافة العربية، سواء من خلال إدخال الحروف اللاتينية لكتابة اللغات الإفريقية، لتحل محل الحروف العربية فى بعض الأحيان، بل وباستخدام المفاهيم والألفاظ الغربية كبديل عن العربية، وهذا ما كان مقدمة لقبول الأفارقة غير العرب انفصالا قد يصل لدرجة التعارض والصراع بين ما هو عربي وما هو إفريقي(3).

وقد دفعت هذه السياسات والآليات التي استحدثها الغرب وروج لها بعض المفكرين والقادة الأفارقة إلى تأكيد مدركات خاطئة لدى بعض الشعوب غير العربية في إفريقيا مفادها أن العرب الموجودين فى شمال القارة لا يهتمون ويرون أن الهوية الإفريقية لا تبعث على الفخر، وأكدوا أن هذا واضح في وسائل إعلام هذه الدول، وفي إنتاجها الفكري والأدبي، فهذه الدول لا تعبر عن أفريقيتها بنفس الدرجة التي تعبر بها عن انتمائها العربي أو الإسلامي، وأن هذه الدول تنحاز تلقائيا للأطراف العربية في أي صراعات يمكن أن تنشأ بين دول عربية ودول أفريقية، وهو ما يرد عليه البعض بأن الصومال لم تحصل فى صراعها مع إثيوبيا سنة 1977 و1978 على دعم من أية دولة عربية، وغاب الموقف الجماعي العربي، بل إن دولتي اليمن وليبيا كانتا إلى

1 – صبحي قنصوة، **مرجع سابق** ، ص ص. 198- 199.

2 - S. J. Dima, **op**. **cit**., pp. 251-259. & - M. Jalâl Haashim, **op**. **cit**., pp. 256-272.
- El-Tahir Adam El-Faki, **op**. **cit**., pp. 294-297.

3 – صبحي قنصوة، **مرجع سابق** ، ص ص. 199 – 200. و
- Bruce Maddy Weitzman, **op**. **cit**., p. 73.

جانب إثيوبيا، وهو ما حدث فى الأزمة بين السنغال وموريتانيا عام 1989، فلم تتلق الأخيرة دعما سوى من دولتين عربيتين من خارج القارة هما العراق وسوريا، وكان ذلك بسبب اعتبارات أيديولوجية، وليس بسبب اعتبارات قومية أو عروبية[1].

ويميل بعض الرؤى الإفريقية إلى تصوير أن هناك تنافسا دينيا بين الجانبين الإفريقي والعربي، وأن ذلك يترجم فى صورة تنافس إسلامي– مسيحي فى العديد من الدول، لكن تتجاهل هذه الرؤى أن الإسلام هو الدين المسيطر على أغلب سكان القارة الإفريقية، فهو الدين الأكثر انتشارا، وهذا الانتشار حدث فى ظل قبول لتواجد ونشاط البعثات التبشيرية المسيحية فى معظم دول القارة، بل وفى ظل وجود تنافس مسيحي– مسيحي داخل إفريقيا، لكن يحاول البعض تقديم هذا البعد كأحد أبعاد الاختلاف بين شمال القارة المسلم، وبين إفريقيا جنوب الصحراء المسيحية أو المسلمة لكنها ذات إسلام مختلف عن الذي للشمال، بل وحاول بعضهم الزج ببعض الأبعاد الدينية فى صراعات داخلية (جنوب السودان قبل الانفصال)، وروج البعض لأن هذه الصراعات كان الهدف منها التصدي للتوسع العربي في إفريقيا، وأن هناك سعي للسيطرة على القارة الإفريقية وجعلها قارة مسلمة عربية، وأن هذا التوسع بدأ من خلال ضم دول عدة إلى جامعة الدول العربية، وحاول المفكرون العرب الرد بنفس الأدوات، وأكدوا أن منظمة الوحدة الإفريقية ومن بعدها الاتحاد الإفريقي يضمان دولا عربية، كما أنه بعد استقلال تنجانيقا قام "نيريري" بضم سلطنة زنجبار أو زنجبار عربية الهوية قسرا، وكان التساؤل لماذا الحديث عن الانضمام لجامعة الدول العربية، ولا حديث عن انضمام الدول الإفريقية للمنظمة الفرانكفونية أو الكومنولث البريطاني، ولماذا لا يوجد حديث عن التنافس أو التعاون الدولي للسيطرة على موارد وثروات الدول الإفريقية، ونشاط الشركات متعددة الجنسيات التي تفوق قدرتها قدرة دول إفريقية عدة، وأكدوا أن تركيز الأفارقة على النشاط العربي يثبت أن هناك بواعث على الشك والريبة، وعدم الثقة المتبادلة بين الطرفين، وأنهم يحاولون البحث عن مظاهر الاختلاف بدلا من البحث عن مظاهر التعاون، ويأخذون من البعد الديني مظهرا لها[2].

ثم جاءت ثورات الربيع العربي منذ عام 2011 لتؤكد على هذا الاتجاه، خصوصا في ظل سيطرة نظم ذات توجهات إسلامية على الدول العربية، حيث انتهجت هذه النظم سياسات وتبنت ممارسات أدت إلى ترسيخ مبدأ ومدرك فى العقلية الإفريقية مفاده أن هذه الدول ذات توجه إسلامي متشدد، وسوف تصدر لنا هذا النمط من الإسلام، خصوصا بعد ما حدث فى مالي وإفريقيا الوسطى فى عامي 2012 و 2013، ولذا برز توجه يؤكد على أهمية عزل الشمال العربي الإسلامي بعيدا عن القارة، وأكد على أن ما لدى الأفارقة هو

1 - صبحي قنصوة، **مرجع سابق**، ص ص. 200 - 201.

2 - إبراهيم نصر الدين، دراسات فى العلاقات الدولية الأفريقية، **مرجع سابق**، ص ص. 119-221 .

إسلام إفريقي أكثر روحانية، لا يسعى للسلطة، ويتناسب مع واقع دول القارة، فقد امتزج مع ثقافتها التقليدية، وأصبح جزءا من مكونات الشخصية الإفريقية، فى حين أن ما في شمال القارة هو إسلام وهابي يسعى للسلطة، ويضحى بجزء من إقليمه لتطبيق الشريعة (السودان)، ويرى الإرهاب ويدعمه، ويتحفظ على قرارات تدينه (موقف مصر مما حدث فى مالي)، لا يحافظ على وحدة الدولة التي تدين به (ليبيا)، وأصبح التساؤل كيف لهذا النمط من الإسلام أن يصبح أداة وحدة لإفريقيا، وهو ذات توجه بعض المفكرين الأفارقة من نمط المسيحية الغربية الذي أتى مع الاستعمار، لكن كانت ممارسات نظم ما بعد ثورات الربيع العربي كاشفة ورسخت لمدركات بعينها، حيث استغل الغرب توجهات ومواقف هذه النظم فى تعميق القطيعة بين العرب والأفارقة، ويمكن تحديث مواقف بعض هذه النظم التي أثرت على مواقف ومدركات الدول الإفريقية على النحو التالي:

أولا: نظام الإنقاذ فى السودان:

يرى الكثيرون من قادة السودان أن ثورات السودان كانت هي بداية مرحلة ما يطلق عليه ثورات الربيع العربي، والواقع أنه من تحليل التوجهات، وطبيعة الممارسات، ونتائج هذا النظام يمكن أن يتأكد وجود رابطة نوعية، فقد قام شعب السودان بثورتي 1964 و 1989، ولم تكن نتائجهما مرضية للشعب السوداني، فقد سيطر على ثورة 1964 أنصار المهدية والميرغنية بتصوراتهم الطائفية الإسلامية، وسعوا لإيجاد دستور "إسلامي" الهدف منه استبعاد الجنوبيين، وأصحاب التوجهات المخالفة، في الوقت الذي ازدادت معه وتيرة الحرب الأهلية مع الجنوب، التي كانت تجد داعمين لها من دول الجوار، ومع سوء الوضع الاقتصادي وقع انقلاب شهر ماي 1969 بقيادة "جعفر النميري" الذي سعى لتبني النهج الاشتراكي، وتم توقيع اتفاق أديس أبابا عام 1972، لكن نميري بعد انقلاب هاشم العطا عام 1971، ومعاداته للماركسيين، وتضييقه الخناق على الأحزاب كان قد فقد أنصاره، لذلك اتجه ليتحالف مع "الترابي" ليعلن عن تطبيق ما سمي بقوانين "الشريعة الإسلامية"، أو "قوانين سبتمبر"، وهو ما أدى لزيادة وتيرة الحرب الأهلية، وتردت الأوضاع الاقتصادية، وانتهى الأمر بانتفاضة سنة 1985 لتعود الأحزاب الطائفية فى السودان التي تحاول استخدام الدين كوسيلة للوصول للسلطة(1).

وقد أدت سمات الواقع السياسي فى السودان فى الثمانينيات إلى وقوع ثورة 1989، ووصول نظام الإنقاذ (الترابي–البشير) إلى الحكم، وهو النظام الذي انتهج الشعارات الإسلامية بصورة أكثر تطرفا في تعامله مع المعارضين، ورفع راية الجهاد فى التعامل مع الجنوب، وفى تصدير أعمال العنف والإرهاب للدول المجاورة،

1 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق** ، ص ص. 225 – 226.

وهذا ما تم تحت شعار "فليذهب الجنوب إلى الجحيم حتى نطبق الشريعة فى الشمال"، وعندما عجز نظام الإنقاذ عن استيعاب الجنوب كان هو أول من دفع هذا الإقليم للانفصال من خلال "اتفاق السلام من الداخل" سنة 1995، والذي تم توقيعه مع الحركات الانفصالية الجنوبية، والذي أقر بحق الجنوب في تقرير المصير والاستقلال، وهذا ما تم تفضيلا من السلطة عن التفاوض مع الحركة الشعبية لتحرير السودان التي كان خيارها المفضل الدفاع عن السودان العلماني الموحد، وهو الخيار الذي كانت تدعمه معظم دول الجوار، غير أن سياسات الإنقاذ/ الإخوان أدت إلى انفصال الجنوب، وهو نظام مرشح لحدوث حالات انفصال أخرى ربما فى دارفور والنوبة والشرق، هذا فضلا عن تردي علاقاته مع دول الجوار، وهذه هي سمات أول تجربة تحمل وصف إسلامي بين الدول العربية، تفكك لدولة موحدة، وترد لأوضاع سكان الإقليم التي تبقى تحت حكمها، وعلاقات عداء مع العديد من دول الجوار[1].

ثانيا: الصومال: حالة اللادولة بعد سيطرة الإسلاميين:

هي الدولة التي شهدت انتفاضة من قوى ترفع شعارات وطنية ضد نظام "سياد بري" فى بداية التسعينيات؛ لأنه لم يصل إلى تحقيق حلم الصومال الكبير، وأهدر ثروات الصومال فى حروب شاملة، وكان ذا نهج قمعي مع المعارضة، ومع ضعف النظام وسقوطه استقلت الأجزاء الشمالية تحت اسم "جمهورية أرض الصومال"، وتدخلت بعض القوى في الجنوب لتعطي الفرصة للحرب ولتفكك الصومال، وهو المناخ الذي كان مناسبا للجماعات التي ترفع شعارات إسلامية، والتي دخلت تحت مظلة الإغاثة والمعونات للشعب الصومالي، مما أدى إلى بروز العديد من الحركات والجماعات الإسلامية المتناحرة والمتحاربة معا، مثل التحالف الإسلامي تارة؛ وهو امتداد القاعدة فى الصومال، والمحاكم الإسلامية تارة، ثم حركة شباب المجاهدين، وأصبحت هناك حالة حرب من الكل ضد الكل، بل وشهدت تدخلا من دول إفريقية فى هذه الحرب، فقد تدخل فى الصومال كل من إثيوبيا، ورواندا، وبوروندي، وأوغندة، وكل هذه الدول تدخلت بدعم غربي، وهذا كان نتاج التجربة الإسلامية الثانية، ضياع دولة الصومال، وحرب أهلية لها أبعاد إقليمية كائنة ومستمرة[2].

---

1 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق**،.ص. 226. و

- Amir H. Idris, **Conflict and Politics of Identity in Sudan** (New York: Palgrave Mackmillan, 2005), pp. 43-56.

2 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق**، ص ص. 226 و 227. و

- Alice Bettis Hashim, "Globalization and Africa: Reconstructing the Failed Somali State and Reviving National Identity", Asfa Jalat (ed.), **State Crises**, **Globalization**, **and National Movements in North East Africa** (London: Routledge, 2004), pp. 182-200. &

- Marc Antoine Pésure de Montclos, "A Refugee Diaspora: When the Somali Go West", Khalid Koser (ed.), **New African Diasporas** (London: Routledge, 2003), pp. 37-52.

ثالثا: مصر وتجربة سنة من حكم الإخوان:

أدت ممارسات نظام الإخوان الذين أتوا إلى الحكم بعد ثورة 25 جانفي2011 فى مصر إلى تردي الأوضاع والعلاقات مع الدوائر الإفريقية، حيث استمر النظام في رفض التوقيع على الاتفاق الإطاري لنهر النيل، بل ونظم أنصار الإخوان وقفة احتجاجية أمام السفارة الفرنسية لإدانة التدخل الفرنسي لمحاربة الإرهاب فى مالي، بل وتحفظ النظام الرسمي على قرار منظمة التعاون الإسلامي بإدانة الإرهاب في مالي، بل وأدان الرئيس هذا التدخل الفرنسي، فى حين ثبت أن هناك عناصر وهابية تكفيرية من مصر، والسودان، وليبيا، وتونس، والجزائر تشترك فى محاولة انفصال شمال مالي، هذا في الوقت الذي أخذت فيه فرنسا على عاتقها الدفاع عن وحدة مالي، وتم ذلك بتأييد عدد من الدول الإفريقية، وبقرار من مجلس الأمن، وبسماح من الجماعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (ايكواس)، ومن الاتحاد الإفريقي، يضاف إلى هذا التردي في المستوى الإقليمي، وواقع الحال الذي كان عليه الوضع فى مصر خلال هذه السنة من تفكك، وسوء أوضاع اقتصادية واجتماعية[1]، ويصبح التساؤل هل يستطيع نظام ما بعد 30 جويلية 2013 أن يعيد لهذه العلاقات توازنها، وأن يكسر عزلة شمال القارة.

رابعا: ليبيا ومستقبل دولة تتجه لحالة اللادولة:

كان النظام الليبي السابق بقيادة القذافي ينتهج سياسات إسلامية وسطية، وحاول خلق حالة من التواصل مع إفريقيا في بعض سياساته، لكنه كان يعادي الجماعات التكفيرية الوهابية، وكانت له علاقات عداء مع نظام الإنقاذ في السودان، لذا كان يدعم الحركة الشعبية لتحرير السودان، بل وكان يدعم متمردي دارفور، ولكنه كان يحافظ على وحدة ليبيا، وهذا ما جعل العديد من الجماعات التكفيرية تستغل الانتفاضة التي بدأت ضد القذافي في فيفري 2011 لتعطى مبررا لتدخل الناتو في ليبيا، لتصبح هذه الجماعات في سدة الحكم في ليبيا بعد رحيل القذافي، مع عدد من العسكريين الليبيين الذين تم أخذهم من تشاد إلى الولايات المتحدة، وتم منحهم الجنسية الأمريكية، وهو ما يفسر حرب الكل ضد الكل في ليبيا بعد أن حاولت بعض الجماعات فرض التوجه الإسلامي على البلاد، وبدأت تتجه بالعنف نحو دول الساحل، وحاولت جماعات موالية للقذافي أن تدافع عن مصالحها القبلية والإثنية، وبدأت النعرات القبلية تهدد مستقبل ليبيا الموحدة، بل وتهدد دول الجوار[2].

1 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق**، ص 227.

2 – **نفس المرجع**، ص 228.

خامسا: تونس: ائتلاف تحت مظلة الإخوان:

استطاعت حركة النهضة التونسية – أحد فروع جماعة الإخوان المسلمين- أن تكون هي الأساس للمشهد السياسي التونسي بعد إسقاط نظام زين العابدين بن علي في 2011، وذلك بحكم قدراتها التنظيمية، ومصادرها التمويلية، والدعم الدولي، وهذا ما توافق مع تعاطف شعبي مع قادتها الذين اضطهدوا من الأنظمة السابقة على الثورة، لكن وجد أن هذه الحركة تنتهج فقط السياسات التي تمكنها من السيطرة على تونس، دون أن تتبنى مشروعا نهضويا بعينه، كذلك زاد نشاط الوهابيين التكفيريين، وشارك بعض هؤلاء فى أعمال عنف في دول الجوار وفي سوريا، بما أدى إلى حالة من الفوضى، عادت معها الشرطة إلى سابق عهدها، بما أدى لتآكل شعبية حركة النهضة التي ربما تلاقي مصير الأخوان في مصر[1]، وهو ما دفعها لتقديم العديد من التنازلات فى المرحلة التالية حتى تتلافى هذا المصير.

سادسا: الجزائر: محاولات لتكرار النموذج الإسلامي:

تحاول جبهة الإنقاذ الجزائرية أن تعيد تنظيم صفوفها لاستغلال أية ثورات أو احتجاجات شعبية تحدث فى الجزائر للسيطرة على مقاليد الأمور على غرار ما حدث في باقي الدول العربية، كما تحاول جمع العناصر الوهابية التكفيرية حولها رغبة في نقل المعركة إلى الجزائر في حالة حدوث تطورات داخل الدولة، وتأخذ هذه الجماعات منطقة ساحل الصحراء منطقة عمل لها الآن[2].

سابعا: المغرب وموريتانيا: دول تظهر أنها بعيدة عن التأثير الإسلامي:

تنتاب القيادة السياسية فى المغرب وموريتانيا حالة من عدم اليقين بسبب الخوف من وصول المد الثوري إليها، خصوصا بعد تزايد الاعتصامات والإضرابات، وبروز العديد من الحركات التي ترفع الراية الإسلامية، حيث بات واضحا أن هذه الحركة تعتزم الخروج من ممارسة العمل السياسي إلى القيام بعمليات العنف والإرهاب، لذلك بادر النظام بإعلان بعض الجماعات بأنها جماعات إرهابية، وهذا ما يزيد من التحديات التي يواجهها النظام السياسي في الدولتين[3].

هذا هو حال النظم السياسية التي اعتلت سدة الحكم بعد ثورات الربيع العربي، وبعد التغييرات التي حدثت في العديد من الدول المتجاورة جغرافيا، وكذلك هو حال الدول التي لا تزال تخشى من الثورات

1 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق**، ص ص. 228 – 229

2 – **نفس المرجع**، ص. 229.

3 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق، ص. 229**.

والتغييرات التي حدثت فى بعض هذه الدول، لكن الملاحظ أن الحركات الإسلامية التي اعتلت السلطة لم تحقق الأهداف والتطلعات التي قامت من أجلها هذه الثورات، وحاولت فقط الاستئثار بالسلطة، وانتهجت سياسات التمكين للسيطرة على الدولة بقطاعاتها المختلفة، وكان لسياساتها وتوجهاتها الخارجية، التي توافقت مع العديد من التغييرات فى أنظمة ودول إفريقية مجاورة، الأثر في خلق ما يشبه حزاما فاصلا بين العرب والأفارقة يمتد من الصومال حتى نيجيريا، مرورا بالسودان، وإفريقيا الوسطى، ومالي، ومنطقة الساحل الصحراوي، ثم نيجيريا، بشكل يؤكد أن العرب ما هم إلا مستعمرون للقارة يجب أن يرحلوا، وأنهم مصدر تصدير الإسلام الوهابي التكفيري الإرهابي، وتأكد ذلك بعد تطورات الوضع في مالي، ومحاولة الجماعات الإرهابية السيطرة على شمال الدولة، وكذلك ما حدث في إفريقيا الوسطى، ورفض التوجهات الإسلامية التي جاء بها نظام "سيليكا"، وكذلك انفصال جنوب السودان، وطبيعة نشاط حركة بوكو حرام في نيجيريا، ووصل الأمر في بعض هذه الدول إلى مطاردة أصحاب الهوية العربية أو الإسلامية، واستئصال الجماعات العربية جسديا، كما حدث في مالي وإفريقيا الوسطى، وهو ما يدلل على تنامي حدة الرفض للعرب وتواجدهم، أو صبغهم بالهوية الإفريقية في هذه القارة(1).

وقد حاول البعض تفسير طبيعة سلوك الأنظمة السياسية الإفريقية، وموقفها من دول ثورات الربيع العربي بأنهم يخشون من تكرار هذا السيناريو والطفرات الثورية فى بلادهم، وبخاصة في الدول التي بها أغلبية إسلامية، أو التي تشهد ترديا في الأوضاع الاقتصادية، وكذلك الدول التي تشهد حركات متمردة، أو التي بها أنظمة حكم مستمرة منذ سنوات، وبعض الدول التي تشهد محاولات توريث للسلطة على ذات النحو الذي كان فى الدول العربية، ويؤكد هذا التوجه أن ثورات الربيع العربي كانت لها تأثيرات وتداعيات على حركات متمردة في السنغال (حركة شبعنا We're Fed Up)، والعديد من الحركات في زيمبابوي، وأوغندة، وأنجولا، وبوركينافاسو، إلى جانب تأثيرات عدة غير مباشرة على الكثير من النظم السياسية، ويرون أن هذه التأثيرات تتوقف على عدة عوامل، منها: شكل نظام الحكم، وطبيعة ممارساته، وعمر هذا النظام، ومستوى الأداء الاقتصادي، ومستوى المعيشة، ودرجة الوعي، ومعدلات التعليم والأمية، وتكوين القوات المسلحة وموقعها في نظام الحكم، كما تتوقف على عمق وتأثير تلك التحركات على مستوى شباب هذه الدول في

1 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق**، ص. 232. و

– عادل عبد الصبور حسن، "التدخل العسكرى فى مالى، ومواقف الأطراف الإقليمية والدولية"، **آفاق أفريقية** (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، المجلد 11، ع.37، فيفري 2013)، ص ص. 93-112.

التكنولوجيا واستخدام تطبيقاتها الحديثة في نقل المعلومات والاتصالات، لكن نقطة التأكيد أنه كان لهذه الثورات التأثير الواضح على سلوك وتصرفات حكام دول جنوب القارة(1).

ويكتمل التصور لتأثير ثورات الربيع العربي على العلاقات العربية الإفريقية إذا أضُيف إليه حقيقة مفادها أن أغلب جيوش الدول الإفريقية يتم تدريبها على يد قوات الفريكوم (القيادة العسكرية الأمريكية المشتركة لإفريقيا) ارتكاناً إلى قاعدة مهمة هي مكافحة الإرهاب (الإسلامي) الذي يؤثر على الاستقرار العالي، وهو ما يوضح خطورة الوضع الحالي على مستقبل العلاقات العربية الإفريقية، خصوصا أن صورة العربي أضيفت إليها بعض الأبعاد الجديدة، فبعد أن كان العربي تاجر الرقيق في مرحلة، ومستعمرا ومستغلا في مرحلة تالية، والساعي لفرض لغته ودينه وثقافته فى مرحلة أخرى، أصبح إرهابياً، ويبدو أن حالة مالي وأفريقيا الوسطى مرشحة للتكرار فيما بين الدول الأفريقية جنوب الصحراء(2).

مما سبق يمكن القول أن المنتمين للدول الإفروعربية ليس في حاجة إلى التأكيد على معايير انتماءهم للقارة الإفريقية وهويتها القارية، لأن معايير الانتماء راسخة وثابتة ومستمرة في التأثير، وإنما الحاجة باتت ملحة لتصحيح المدركات والصورة الذهنية المغلوطة التي يشوبها الكثير من السلبيات، وهو ما يمكن أن يمهد السبيل لتفعيل تأثير ومظاهر المكون الإفريقي في هوية تلك الدول الإفروعربية، ويمكن تفعيل وتوثيق أسس الترابط العربي الإفريقي من خلال إبراز أوجه الترابط والتداخل العربي الإفريقي، وتفعيل التنظيمات والمؤسسات المشتركة، وكذلك إيجاد واستحداث الأطر التنظيمية التي تسهم في حل المشكلات العالقة بين الطرفين، وأيضا على الطرفين التعاون لمواجهة أثار وتحديات العولمة والتحولات التي في النظام العالمي وتؤثر سلبا على كليهما، وهو ما لابد أن يسبقه وقف الممارسات العربية ذات التأثير السلبي على المدركات الإفريقية تجاه العرب، بل ويجب التأكيد على إفريقية دول شمال القارة، وهو ما سيتم تطبيقه على الحالة المصرية.

المبحث الثاني: أزمة المكون الإفريقي في الهوية المصرية

في الوقت الذي يرى بعض المفكرين الأفارقة –جنوب الصحراء– أن الحضارة المصرية القديمة حضارة زنجية، وهي الرؤية التي انتشرت بين المفكرين الفرانكوفون، إلى جانب بعض المفكرين الإنجلوفون، الذين في رأيهم أن إفريقيا هي "مهد الحضارة" و"حافظة تراث العالم"، ومهد الإنسان الأول، وأن تاريخ القارة الإفريقية

1 - Lydie Boka, "Impact of the North Africa Revolutions on Sub-Saharan Africa", **Paper Presented to African Governance Monitoring & Advocacy Project**, **Open Society Institute** (New York: Open Society Institute, 2012), pp. 1-7.

2 - إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق**، ص. 232.

تعرض لحملة تزويرية حتى يتم صلته بأسسه الحضارية (الحضارة المصرية القديمة)، وحتى يتم تبرير استعمار القارة، وسيكون محور هذا الفصل إبراز السمات الإفريقية للحضارة المصرية من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: مصر في الفكر الإفريقي.

المطلب الثاني: دلائل أزمة المكون الإفريقي في الهوية المصرية.

المطلب الأول: مصر في الفكر الإفريقي

قدم بعض المفكرون الأفارقة "الفرعونية" كتعبير عن الهوية الإفريقية، باعتبار أن الحضارة المصرية القديمة هي المرجعية الحضارية لإفريقيا، وقدموها باعتبارها حضارة زنجية، كوسيلة للتأكيد على قيمة ووجود ودور الإنسان الأسود في التاريخ والحضارة الإنسانية، وأن الإطار الحضاري للأفارقة يسبق ويفوق إسهام الإطار المرجعي الذي للبيض المتمثل في الحضارة اليونانية[(1)]، ومع استهداف الاستعمار تدمير إرادة الأفارقة في الرفض والمقاومة، لذا عمل على إخضاع السود من خلال تشويه ماضيهم وإرثهم الحضاري، حتى يخضعوا لذلك النموذج الغربي، وأن يتركوا كل ما هو إفريقي، لذا حاول الغرب باستخدام الدراسات العلمية التي تؤكد لا دور حضاري للزنجي، بل وأكدت نظريات النشوء والارتقاء أن الأسود هو في ذيل قائمة الإنسان، بل أنه المرحلة التي تسبق الحيوان، لذا حاول المفكرون الأفارقة التأكيد على إسهام الأفارقة الحضاري ويفندوا كافة التوجهات والنظريات التي حاولت إثبات غير ذلك[(2)].

يرى أنصار "الفرعونية" أن المصريين القدماء ينتمون للزنوج، وهم "أعظم الناس، وهم مديني العالم"[(3)]، وأنهم المسؤولين عن نقل الفكر والثقافة لليونان التي هي المرجعية الحضارية للغرب[4]، مؤكدين أن شهادة العديد من المؤرخين والرحالة القدامى، أمثال "هيرودوت"، و"فولني"، و"تيودر الصقلي"، و"سترابون" تؤكد على زنجية هذه الحضارة، كما أن اللون الأسود بها كان يرمز للخير، والأبيض كان رمز الشر، وهناك أدلة في الآثار، والمعابد، ومواريث الوضع الاجتماعي تؤكد على مكانة السود في هذه الحضارة القديمة، بل أن شكل واتجاه الهجرات تؤكد على أن السود كان – على الأقل- لهم إسهام واضح في هذه الحضارة، إن لم تكن هي حضارة

1 – صبحي قنصوة، "الأصول الفكرية للولايات المتحدة الأفريقية"، **ورقة بحثية غير منشورة** (القاهرة: معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 2013)، ص. 6.

2 - Charles C. Verharen, "the New World & the Dreams to Which it May Give Rise: An African and American Response to Hegel's Challenge", **Journal of Black Studies** (London: Sage Publication, Vol. 27, No. 4, March 1997), pp. 475-477

3 – أورينو دالار، هيثم اللمع (مترجم)، **نشأة التيار الإفريقاني: الجذور التاريخية والأميركية والأفريقية فى القرن التاسع عشر** (مصراتة: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 2000)، ص ص. 197-198.

4 - Wyatt MacGaffey, "Who Owns Ancient Egypt?" **The Journal of African History** (Cambridge: Cambridge University Press, Vol. 32, No. 3, 1991), pp. 515-519.

زنجية بالكامل، بل يرون أن الزنوج تحت تأثير الظروف المناخية والطبيعية والتاريخية استقروا حول النيل، وبنوا هذه الحضارة، وبفعل التغيرات المناخية اللاحقة تركوا هذه المنطقة متجهين إلى مناطق أخرى، وهو ما تؤكده الروابط اللغوية، وهو ما يؤكد أن التاريخ الحضاري الإفريقي أسبق من أي تاريخ آخر، وأن القارة موطن من المواطن الجنوبية للحضارة، وهو إثبات وتأكيد على إفريقية مصر تاريخيا[1].

وليست هناك حاجة إلى مناقشة تفصيلية للطبيعة الأفريقية لحضارة المصرية، والتي تؤكد أهمية المكون الأفريقي في الهوية المصرية، والتي ربما ترد على الكثير من الادعاءات والمزاعم والمدركات السلبية التي تكونت لدى الأفارقة جنوب الصحراء عبر مراحل تاريخية، فهناك أدلة تفند تلك التوجهات السلبية، لكن هناك حاجة إعادة تقديم وفهم تلك الأدلة، حتى يصبح لدينا القدرة على استخدامها في تحسين العلاقات العربية الإفريقية، ويمكن التأكيد على أن أهم تلك الأدلة:

أولا: الأدلة اللغوية والثقافية:

باعتبار أن اللغة هي المعيار أو الوعاء الأساسي الدال على مكونات وسمات الهوية الشاملة لدولة أو مجتمع ما، فهي التي تكشف شكل التأثيرات والعلاقات الثقافية والحضارية، وتكشف العديد من الأدلة اللغوية العلاقة الراسخة بين اللغة المصرية القديمة واللغات الإفريقية، خاصة أن التطور اللغوي في المجتمعات المستقرة يحدث ببطء، وتكشف الأدلة عن الكثير من أبعاد التشابه وربما التطابق بين هذه اللغة ولغات إفريقية، خاصة لغة الولوف في غرب إفريقيا، وهو ما يمكن معه التأكيد على التأثير المتبادل والتداخل بين الحضارة المصرية القديمة، والحضارات الإفريقية[2].

وإذا تم ربط هذا التشابه اللغوي مع التأثير الواضح والمستمر للغة المصرية القديمة على العامية المصرية المنتشرة الآن، وهو ما يمكن إثباته من خلال دراسة ألفاظ ومفاهيم العامية، وهو ما يوضح كثافة تأثرها بالمصرية القديمة، وهو ما يعطي دلالة على استمرار واتصال الشخصية المصرية، ووحدة إدراكها العام، ويؤكد أيضا على استمرار اتصالها بأصلها وجذورها الإفريقية، على الرغم من تأثرها بالمراحل الطويلة من الاستعمار والغزوات، لكن يظل الدليل اللغوي يؤكد على استمرار تأثير المكون الإفريقي في الهوية الجامعة والعقل المجتمعي المصري، لكن تسعى عدد من القوى لإغفال وإنكار هذا المؤثر؛ رغبة منها في ربط مصر بروابط أخرى، حتى لو كانت عربية، وفي رأيهم أن دوائر الانتماء متعارضة وليست متكاملة[3].

1- شيخ انتا ديوب، حليم طوسون (مترجم)، **الأصول الزنجية للحضارة المصرية** (القاهرة: دار العالم الثالث، 1995)، ص ص. 5-25.

2 – **نفس المرجع**، ص ص. 176-220.

3 _ عصام ستاتي، **مقدمة في الفولكور القبطي** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2010)، ص ص 5-18 و 259-267. و

_ سامح مقار، **أصل الألفاظ العامية من اللغة المصرية القديمة** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2004)، ص ص 5-25.

ثانيا: الأدلة الأثرية والأنثروبولوجية:

تؤكد الرؤى الأنثروبولوجية أن "حام بن نوح" هو أصل السود في العالم، حتى أن لفظ حام في اللغة العبرية تعني "حرارة أو أسود أو محروق"، وهذا ما تؤكده الرؤى الغربية عند حديثها عن لعنة نوح لابنه حام، ليصبح نسله (من السود) تحت هذه اللعنة، وهو ما يبرر كل ما تم معهم ومع أحفادهم من رق وعنصرية، لكن عندما يثبت أن الحاميين هم بناة الحضارات، وقتها يصبح البيض هم الحاميين، وإن كان الإدعاء الأخير من الضعف أن ينتشر، فالثابت أن المصريين من الحاميين، وأن لونهم كان الأسود، لكن تأثرت بالمراحل الاستعمارية الطويلة، فقد أطلق المصريون القدما على بلادهم لفظ "كيميت" التي تعني "الأسود أو الطيني"، ويعود البعض بأصل كلمة مصر إلى "مصرايم بن حام بن نوح"، وهو الحفيد الموعود بأن يكون الأصل لأمة مباركة(1).

يؤكد أيضا علماء المصريات أن بعض ملوك مصر القديمة، والطبقات المقربة منهم في لوحات وادي الملوك كانوا من أصحاب اللون الأسود، بل أن الكثير من الملوك المصريين صوروا أنفسهم باللون الأحمر الداكن، مع أنه لا يوجد جنس أحمر، لكن هو درجة من درجات اللون الأسود، واتخذوا اللون الأحمر تمييز لهم، ويؤكدون أن سمات وملامح تمثال الملك مينا، والملك أزويريس، والملك خفرع، تعطى ذات ملامح الزنوج، كما أكدوا أن الملك "منتوحتب الأول" مؤسس الأسرة الحادية عشر، هو من أصل زنجي، كذلك أكدوا أن تلوين وجه "توت عنخ أمون" باللون الأسود، مع أن ملابسه باللون الذهبي، وملامح تمثال الملك سنوسرت، وأن والدة الملك تحتمس الأول من جنوب مصر، كل ذلك يعطى دلالة على أن المصريين القدماء من الزنوج، أو على الأقل أن الزنوج كان لهم دور، وأنه لم يكن في الحضارة المصرية "رق"، وأن اللون الأحمر الداكن، ولون الزنجي "النحاسي أو الأسود"، الذي تصبغ تماثيل هذه الحضارة، ما هي إلا تدرجات داخل ذات اللون، وهو ما يؤكد على زنوجة تلك الحضارة(2).

تؤكد العديد من الرؤى الأنثروبولوجية أن أفريقيا بكاملها لم تعرف سوى العنصر الزنجي، لكن بدرجات وانتماءات إثنية مختلفة، بينما كان التدرج اللوني بتأثير عوامل خارجية، وأنه لم يكن من الأفارقة عبيداً في الحضارة المصرية القديمة، بل أنه لم تعرف تلك الحضارة السامية أية أنماط من العبودية والرق، فالرق جاء مع البيض، فاللون الأسود كان لون بعض الملوك والكهنة (الفئة الأعلى في الحضارة المصرية)، ومن الصعب تصور أن يكون هو ذاته لون عبيد أو رق، وأن الاستعمار والقراءة الغربية لموروثات تلك الحضارة هم من حاولوا

1 – شيخ انتا ديوب، **مرجع سابق** ، ص ص. 27 – 28.

3 – **نفس المرجع**، ص ص. 35-86.

تشويه أسس وسمو هذه الحضارة، وخلق الفارق بين الأفارقة والمصريين، وهو ما استمر في تأكيد الخلاف والاختلاف بين شمال وجنوب صحراء إفريقيا(1).

ثالثاً: الأدلة الدينية والاجتماعية:

تؤكد العديد من الشواهد أن للبعد الغيبي تأثيره الواضح في الحضارة والثقافة الإفريقية، حتى أن البعض يفسر نشأة بعض المجتمعات، ووجود بعض الحضارات، واستمرار بعض الدول بأسباب وقوى فوق بشرية، بل ويتم تفسير بعض الممارسات والتطورات في الحضارات والمجتمعات الإفريقية، حتى أن البعض طرح رؤية مفادها أن القارة الإفريقية وجماعاتها كانت من أولى المجتمعات التي وصلت إلى التوحيد، ووحدة الله للعالم كله، وتأكد ذلك من خلال فكرة "الأحادية الظواهرية" التي تعني أن الحدس يقود إلى التأكد بأن الكون عبارة عن شبكة من قوى مختلفة يكمل بعضها البعض، وهي تعبير عن قوة الله الموجود الحقيقي، وأمن الأفارقة أن الله هو قوة القوى، وأن وحدة الكون تحققت في الله من خلال اتحاد القوى المتقابلة والمتكاملة الصادرة عنه، والتي تفضي إلى وحدة إلهية، وهذا ما يفسر مكانة الدين والغيبيات في العقل الجمعي الإفريقي، حتى عند كفاحهم للتحرر والاستقلال استخدموا لاهوت التحرير والدين، خاصة أن معظم المجتمعات الإفريقية هي مجتمعات زراعية، تلك التي تميل للأيمان بقدر الله والقوى الغيبية، ذلك لأن بقاءها يرتبط بقوى غيبية هي التي تتحكم في قواها الإنتاجية(2).

وحتى يتم تأكيد إفريقية الحضارة المصرية لابد من التأكد من مكانة البعد الديني والغيبيات في هذه الحضارة، ويصبح التساؤل هل عرفت الحضارة المصرية القديمة التوحيد على النحو الذى عرفته بعض المجتمعات الإفريقية؟ أم كانت حضارة وثنية؟

يمكن تأكيد توحيد الحضارة المصرية على ذات النحو الذي في القارة الإفريقية من خلال الكتب السماوية، ففي التوراة عندما تم الإتيان بسيدنا يوسف ليفسر حلم فرعون، قال الأخير لعبيده: "هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله"، وقال ليوسف: "بعدما أعلمك الله كل هذا"، وكذلك في حديث ملك مصر مع سيدنا موسى: "صليا إلى الرب ليرفع الضفادع عني وعن شعبي، فأطلق الشعب ليذبحوا للرب"، وقال له

1 - Cheikh Anta Diop, **The Culturtal Unity of Black Africa**: **the Domains of Patriarchy and Matriarchy in Classical Antiquity** (London: Karnak House, 1989), pp. 50-54.

2 – ليوبولد سيدار سنجور، **أسس الأفريقانية أو الزنجية والعروبة: محاضرة ألقاها سنجور بمناسبة منحه الدكتوراه الفخرية فى الآداب من جامعة القاهرة** (القاهرة: جامعة القاهرة، فيفري 1967)، ص ص. 37 -50.

العرافون: "هذا أصبع الله"، وقال لموسى أيضاً: "كفى حدوث رعود الله والبرد"، وهذا يثبت أن الملك يعرف الله وقوته[1].

كذلك في الإنجيل –كتاب المسيحية- تقول مريم العذراء: "من مصر دعوت ابني"، وتؤكد على أن: "مبارك شعب مصر"، وقت هروبها بعيسى عليه السلام، فهل تهرب بابنها من أرض إيمان أم إلى أرض كفر[2]، وهو ما تأكد في القرآن الكريم، فعند الحديث عن سيدنا يوسف وامرأة العزيز، يقول سبحانه وتعالى عن نسوة المدينة (مصر): "وقلن حاشا الله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم" (سورة يوسف، الآية 30)، وأيضا في قوله تعالى: "وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون" (سورة الأعراف، الآية 137)، وكأن بني إسرائيل يرون عبادة الأوثان للمرة الأولى[3].

وإذا تم تحليل كتب المصريين القدماء سنجد العديد من الأدلة، لعل أهمها ما جاء في "كتاب الموتى" الذي يعود تاريخه إلى 4500 سنة قبل الميلاد، حيث ينص: "إن هؤلاء الذين يقطنون في الأعالي، وهؤلاء الذين في الأعماق يعبدونك...ملك الأبدية...سيد الخلود...يا من أنت الأبدية والخلود"، ويأتي تصوير هذا الكتاب لمشهد وزن قلب المتوفي، وما يقوله ويفعله المتوفي لتؤكد أنها حضارة تعرف الحساب أمام الله لا أمام أخر، وأنها حضارة أخرة، فميراثها من المعابد والمقابر فقط[4].

وكذلك ما قاله علماء الصريات أمثال "شامبليون"، "هنري برويش"، والعالم "دي روجيه"، و "دي لاروج"، و "مارييت باشا"، و "كورت زينية"، والعالم النفسي "سيجموند فرويد"، وهناك شهادة البرديات والأثار المصرية سنذكرها نماذج منها:

- أحدى برديات المتحف البريطاني تقول: "أنت الإله الأكبر، سيد السماء والأرض، خالق كل شيء، يا إلهي ربي وخالقي". ومقبرة الحكيم "كاجمني" التي تعود للأسرة الثالثة (2780-2680 ق.م)، يقول نصوص مقبرته: "سلك طريق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب

---

1 - دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط، **الكتاب المقدس** (القاهرة: دار الكتاب المقدس، 2003)، سفر التكوين، (الإصحاح 13، الآية 10)، (والإصحاح 39، الآيات 3-5)، و(الإصحاح 41، الآيتان 38 و 39)، و(الإصحاح 12، الآية 10)، وسفر التكوين، (الإصحاح 8، الآية 8 و 19)، و(الاصحاح 9، الآية 8).

2 – **نفس المرجع**، إنجيل متى، الإصحاح 2، الآيات 13-15.

3 - **القرآن الكريم**، (سورة يوسف، الآية 30)، و(سورة الاعراف، الآية 137).

4 - والس بدج، د. فيليب عطية (مترجم)، **كتاب الموتى الفرعوني** (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1988)، ص ص 8- 32

الله...فتستوجب غياب الله...لأن الإنسان لا يعرف ماذا سيكون مصيره، ولا يعرف ما يفعله الله عندما ينُزل العقاب"[1].

- وكذلك مقبرة الحكيم "بتاح حوتب" في عصر الأسرة الخامسة، يقول على جدرانها: "سوف يرفض الله عملك إن كنت متواضعاً...إن تدابير الخلق بيد الله الذي يحب خلقه...إن الله يعز من يشاء ويزل من يشاء"، وقال أيضاً: "إن أكل العيش طبقاً لتدابير وتقدير الله...لا تخن من ائتمانك، الأمين يؤدي أمانته...ما على الرسول إلا البلاغ...وإذا حكمت بين الناس فأسلك طريق العدل"[2]، وعلى جدران مقبرة الحكيم "آني" الذي ظهر في عصر الأسرة الثامنة: "خف الله واتق غضبه...ولا تغضب أمك لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب"[3].
- وفي عصر الأسرة الثامنة عشر (1570-1304 ق.م) يقول امنحتب والد اخناتون يقول: "أيها الخالق الذي لم يخلقك أحد الواحد...منقطع القرين في صفاتك...إنك صانع مصور، ومصور دون أن تُصور"، كذلك جاء "إخناتون"، الذي يحاول البعض ربط التوحيد باسمه، لأنه أعقب الرسالة التي نزلت على موسى، حتى يكون تاريخ التوحيد في الحضارة المصرية مرتبط بالرسالة اليهودية ونزولها، لكن تثبت الأدلة السابقة الإشارة لها أن التوحيد سبق اخناتون بنحو ثلاثة ألاف عام[4].
- وفي القرآن الكريم يذكر الحكيم لقمان، وهو من ظهر في عصر الأسرة الحادية والعشرين، ويقول عنه القرآن الكريم: "لقد آتينا لقمان الحكمة"، وكذلك: "إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم"[5]، وكذلك عند زيارة هيرودوت إلى مصر في عصر الأسرة السابعة والعشرين، أي سنة 450 ق.م قال وقتها: "إن المصريين كانوا أول الموحدين، وأن بقية العالم أخذ الدين عنهم...كانوا يعرفون الإله الواحد الذي لا بداية له، الحي الأبدي...كانوا لا يعبدون إلا الله، وكانوا يقولون إنه الأول والآخر...إن المصريين أكثر تديناً من جميع الشعوب القديمة، وكانت كل حركاتهم وسكناتهم إلى الله وحده"[6].
- مقبرة الحكيم الصعيدى "بتوزيريس" كبير كهنة الأشمونين بصعيد مصر، الذي عاش في ظل الأسرة الثلاثين، أي نحو سنة 350 ق.م، فقد وُجد على جدران مقبرته وصاياه وأحكامه يقول

---

1 - نديم السيار، ، **قدماء المصريين أول الموحدين** (القاهرة: مطابع الأهرام، ط 1، 1996)، ص ص .6. - 20

2 - **نفس المرجع** ، ص ص. 11-18 و 171-273 .

3 – **نفس المرجع**، ص ص. 159 – 170.

4 – **نفس المرجع** ، ص ص. 146- 147.

5 - **القرآن الكريم**، سورة لقمان، الآية 12 و13.

6 - نديم السيار، **مرجع سابق** ، ص ص. 25-28 و 44.

فيها: "إن سبيل من يخلص نفسه لله فيه صلاح، وطوبى لمن يهديه قلبه إليه، ولسوف أنبئكم بما وقع لي، وأجعلكم تدركون ما يريد الله...إذا كنت قد بلغت هنا مدينة الخلد، فقد كان السبيل إلى ذلك أنني عملت صالحا في الدنيا، وأن قلبي قد هوى إلى سبيل الله منذ طفولتي حتى اليوم، وكان توفيق الله يلازم نفسي طوال الليل...مارست العدل وكرهت الظلم، لم أعاشر من ضلوا سبيل الله، لقد فعلت كل هذا لأنى كنت واثقاً من أنني سوف أصير إلى الله بعد مماتي، لأني آمنت بمجيء يوم قضاء العدل، وهو يوم الفصل، حيث يكون الحساب"[1]، وكان يقول أيضا: "ولسوف أجعلكم تعرفون ما يحب الله ويريد...من يلزم سبيل الله يقضى حياته كلها فى بهجة، ويفيض عليه الخير أكثر مما يفيض على سائر أقرانه"[2].

- التأكيد على أن الأسماء "رع – أمون – بتاح...." لم تكن آلهة في فكر وعقيدة المصريين القدماء، إنما كانت عبارة عن "نيثو" بحسب تعبيرهم، أي المنتسب إلى العرش الإلهي، وهو ما يفتح الباب إلى إمكانية كونهم من الملائكة أو أصحاب النعم أو أشخاص لهم درجة دينية ما، وبشكل عام يمكن اختتام القول بكلام الله تعالى: "ولكل أمة رسول"[3]، وكذلك قوله تعالى لرسوله الكريم: "لقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص"[4]، وهي الآيات والأدلة أمام التأكيد أن المصرين القدامى عرفوا التوحيد الذي عرفته إفريقيا، ولكن التساؤل الذي يثور في الذهن حول أيهما كان الأسبق، ومن نقل عنه، أم أنها كانت ارتباطات فكرية و تأثيرات متزامنة.

المطلب الثاني: دلالات وأثار أزمة المكون الإفريقي في الهوية المصرية

على الرغم من توافر الأسس والروابط والأدلة المختلفة التي تؤكد على إفريقية الحضارة المصرية، لكن لا يزال هذا المكون يعاني من أزمة في مكونات الهوية الجماعية المصرية، حيث تراجع لصالح مكونات ومجالات انتماء أخرى، تلك التي تم الترويج لكونها أكثر أهمية من الإفريقي، وهو ما صاحبه العديد من التأثيرات السلبية على روابط وعلاقات مصر بقارتها الإفريقية، وبرزت العديد من الأزمات، وهو ما يحتاج لدراسة أسباب تفسيره، وكذلك دراسة دلالته وأثاره.

1 - سرج سونيرون، زينب الكردى (مترجم)، **كهان مصر القديمة** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975)، ص ص. 15 - 16.

2 – **نفس المرجع**، ص ص. 16 – 17.

3 - **القرآن الكريم**، سورة يونس، الآية 46.

4 - **القرآن الكريم**، سورة غافر، الآية 77.

أولا: أسباب أزمة المكون الإفريقي في الهوية المصرية:

بات من الواضح تراجع تأثير المكون الإفريقي في العقلية والإدراك العام المصري، وتراجع معه الدور المصري، وربما اختفى معه التأثير المصري، بعدما كانت في مرحلة من أكثر الدول المؤثرة، لكن انعكس ذلك بعد اتفاقية السلام (كامب ديفيد في 1978)، وانتقال مصر للمعسكر الغربي في وقت سبق على دول القارة، ثم جاءت محاولة اغتيال الرئيس المصري في أديس أبابا سنة 1995، لتبدأ أزمات بين القاهرة ودول إفريقية، يأتي على رأسها أزمة سد النهضة، وهي المتغيرات الدافعة لدراسة أسباب تراجع تأثير ووجود المكون الإفريقي في الهوية المصرية، ومن ثم كثافة الأزمات بين مصر ودول القارة، ولعل من أهم هذه الأسباب:

1.تراجع اهتمام الفكر المصري والعربي بإفريقيا:

يؤكد التحليل الاستقصائي لموقع وأهمية إفريقيا في الفكر السياسي والعمل البحثي العربي، وخاصة المصري بأنه محدود، فلا تزال تقف كافة البحوث، والأعمال العلمية، والدوريات، والكتابات عند مستوى الوصف، ولا تتعدى هذا المستوى إلا حالات قليلة، ولا تزال اهتمامات هذه المجالات البحثية يقتصر على بعض المجالات دون الأخرى، وعلى بعض المناطق والأقاليم دون الأخرى، فلا يزال هذا الفكر العربي يعرف إفريقيا بشكل جزئي، فلا يزال الإفريقي هو "أخر" في هذا الفكر، وهو ما تم ترجمته إلى مدرك أن مصر وشعبها لا يحملون الصفة الإفريقية، وأنها بالأساس دولة عربية فقط، وهو ما رسخ للتمييز بين شمال وجنوب القارة، وتوافق ذلك مع توجهات، وكتابات، ورؤى إفريقية تستبعد شمال القارة من الهوية القارية، وكذلك رفض المصريون تيار الزنوجة الذي يرى أن الحضارة المصرية القديمة حضارة زنجية إفريقية، وعمل الغرب على اتساع تلك الفجوة، رغبة في السيطرة على الطرفين، فحالة الانقسام تخدم فقط مصالح الغرب[1].

2.تراجع الاهتمام المصري بالقضايا القارية الأفريقية:

سبب تراجع الدور المصري تراجع اهتمامها بالقضايا القارية، بل وتركت أطراف أخرى تحمل على عاتقها الدور الريادي في هذه القضايا، فبات بحث الدول الإفريقية في قضايا الوحدة القارية، والتنمية، والتحول الديموقراطي، والتغيرات المناخية، ومواجهة الأوبئة، يرتبط بإرادة ورؤى قوى من خارج القارة، بل بدأت القارة تنتهج ذات نهج نظم وقوى ما قبل الاستعمار في تعاملها مع الغرب، فبات اقتصادها تابعا للغرب، وسعت للذوبان في الثقافة الكونية، وجعلت بعض أقاليمها مركزا لعمل قوات غربية، وتدخل الغرب لمواجهة الصراعات والحروب الداخلية، كل هذا يتم دون وجود تأثير أو دور أو اهتمام من الدول الإفروعربية،

1 – إبراهيم نصر الدين، **دراسات فى النظم السياسية الأفريقية** (القاهرة: دار اكتشاف، 2010)، ص ص. 362 – 363.

فمن عير المسموح لها أن تقوم بأدوار مناسبة، وهو ما يرسخ للفصل بين شمال وجنوب الصحراء، وحمل معه تراجعا أضافيا للاهتمام والدور المصري في القارة الإفريقية[1].

3.المشكلات الداخلية للدول العربية، خاصة مصر:

كانت طبيعة المشكلات، وعدم الاستقرار، والتغيرات السياسية والاقتصادية في الدول العربية، وخاصة مصر، من أهم أسباب تراجع الدور والتأثير المصري في القارة الإفريقية، فمنذ السبعينيات راحت مصر تبحث عن نموذج تنموي، فأخذت بالرأسمالية سياسيا واقتصاديا، وظهر بها حزب مهيمن (الحزب الوطني)، ودخلت في مرحلة من عدم الاستقرار بعد الحراك الشعبي في 25 جانفي2011، وجاء نظام حكم أدت سياساته إلى تأزم علاقات مصر مع دول حوض النيل، تلك التي مهدت السبيل لتأزم مشكلة سد النهضة، ثم جاء حراك 30 جويلية 2013، ليشهد عام 2014 عودة اهتمام مصري جزئي بالقارة الإفريقية، فزادت كثافة الزيارات، والمشروعات، والبعثات المصرية، وتم التوقيع على اتفاق المبادئ بين مصر وإثيوبيا والسودان في مارس 2014، وعلى الرغم من استمرار أزمة سد النهضة، لكن من الواضح أن هناك اهتمام مصري بالقارة الإفريقية، وإن كان ينصرف إلى مناطق وأقاليم بعينها، وهو ما جعل مصر ممثل للقارة في قمة المناخ، وتم انتخابها بمقعد مجلس الأمن غير الدائم عن القارة الإفريقية، وترأست العديد من لجان ومنظمات قارية، لكن يظل الأمر متعلق بتبني نهج، واقتحام القضايا التي تهم الإنسان الإفريقي[2].

فقد كان لدى الدول الإفريقي مدرك ومعتقد أن السياسة الخارجية المصرية تُمارس بشيء من الاستعلاء، وعدم الاهتمام بقضايا القارة الإفريقية، وأن مصر كانت غائبة على مستوى القيادة عن القمة الإفريقية منذ 1995 حتى بعد عام 2011، وراحت تؤكد انتماءها في الدوائر العربية، والإسلامية، والأورو – متوسطية، بل وأحيانا بدوائر وقوى غربية، خاصة الولايات المتحدة، كل ذلك تسبب في تراجع تأثير توجهات مصر في إفريقيا، على الرغم من المكانة الأدبية لحاضرتها القديمة في نفوس العوام والمفكرين الأفارقة[3].

1 – حلمي شعراوي، **أفريقيا من قرن إلى قرن** (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2010)، ص ص. 9-15.
2 - Jennifer C. Veilleux, "The Human Security Dimension of Dam Development: the Grand Ethiopian Renaissance Dam", **Global Dialogue** (New Delhi: Center for World Dialogue, Vol. 15, No. 2, summer/autumn 2013), pp. 1-13.

3 – محمد العجرودي، دينا كمال، "الاتحاد الأفريقي والقمة الثالثة والعشرون"، **جريدة الأهرام المصرية** (القاهرة: مؤسسة الأهرام، 26 جويلية 2014)، ص ص. 1 -5 .

4.التنافس الدولي والقوى البديلة من داخل وخارج القارة:

حدث طفرة في الاهتمام الدولي بالقارة الإفريقية في السنوات الأخيرة، بل وباتت مركز اهتمام، ومقصد استثماري، ومجال نفوذ (تعاوني وصراعي) بين كافة القوى العالمية تقريبا، فقد تأسس للقارة العديد من المنتديات والصناديق مع قوى تنموية وعسكرية واستثمارية عالمية، وتأسست قواعد عسكرية، وقوات موحدة غربية موجهة وموجودة في القارة، وتم تفعيل العديد من الأطر التنظيمية مع الكثير من القوى العالمية، بل وأصبح التنافس الدولي يشمل قوى إقليمية، أمثال إيران، وتركيا، إلى جانب إسرائيل، كما بدأت بعض الدول الإفريقية تجعل من نفسها قوة إقليمية ساعية إلى قيادة أقاليم بعينها، كجنوب إفريقيا، ونيجيريا، وإثيوبيا، وحاولت الأخيرة تصوير نفسها بكونها المنافس والبديل للدور المصري في حوض النيل، ونجحت في ذلك جزئيا، وبدأت في البحث عن مجالات رياداتها في دوائر خارج شرق أفريقيا[1].

ويمكن القول أن تراجع الدور والإتمام المصري بالقارة الإفريقية وقضاياها الإقليمية جزء من تراجع دور واهتمام كافة الدول الإفروعربية، فقد تراجع الدور الليبي بعد معمر القذافي، ولا تزال المغرب خارج دائرة الاتحاد الإفريقي بسبب مشكلة الصحراء الغربية، وانشغلت تونس والجزائر بعدد من قضاياها الداخلية، وإن كانت الأخيرة هي الدولة المرشحة للقيام بدور ريادي في العلاقات العربية الإفريقية في الفترة المقبلة، خاصة مع ما تواجهه بقية الدول من تحديات لدورها وقبولها الإفريقي، فلا تزال السودان في حربها وصراعاتها الداخلية، تلك الحروب التي تصور بكونها بين عرب وأفارقة، وما يواجهه العرب في مالي، وما يعانيه المسلمين في إفريقيا الوسطى، وطبيعة النظرة العالمية للدول الإسلامية، ومحاولة نقل هذا الصراع إلى الساحة الإفريقية، غير أنه لا تزال ذات السياسات والمدركات والأدوات العربية مستمرة فى التعامل مع القارة الإفريقية.

ثانيا: نتائج ودلالات أزمة المكون الإفريقي في الهوية المصرية:

أدى تراجع الاهتمام والدور الإفريقي لمصر إلى العديد من المشكلات والنتائج والدلالات التي كانت في مجملها سلبية على الواقع والسياسة المصرية، فقد أدى ذلك إلى زيادة نشاط، وتدخل أطراف مهددة

1 - Manuel Marnrique Gil, "In Depth Analysis: Something New Out of Africa? Chinese, US and Eu Strategies for the Continent", **Paper from Directorate General for External Policies**, **Policy Department**, **European Union** (Maastrcht: European Union, April 2015), pp. 4-25. &

- Ely Karmon, "the Iran/Hezbollah Strategic and Terrorist Threat to Africa", **Working Paper from International Institute for Counter-Terrorism** (Herzliya, Israel: International Institute for Counter-Terrorism, March 2012), pp. 12-19.

لاستقرار وأمن كافة الدول العربية، وهى الأطراف التي حاولت أن تجد لها سندا اجتماعيا، أو تاريخيا، أو اثنيا مع بعض الدول الإفريقية، وحاولت استخدام هذه السمات لتوثيق علاقاتها وتعاملاتها بالقارة الإفريقية، وهو ما حمل معه تهديدا للأمن القومي العربي بشكل عام، والمصري بشكل خاص، حيث أن تلك الأطراف تشمل إسرائيل، وإيران، وتركيا، وبعض الأطراف ذات أجندات معادية للعرب ودورهم، وربما وجودهم، في القارة الإفريقية[1].

كذلك من أهم النتائج التي ترتبت على تراجع الدور العربي كان كثافة الرؤى والتوجهات الرافضة للعرب، والداعمة للرؤى الاستعبادية لشمال إفريقيا من الهوية الإفريقية الجامعة، فلا يتم الإشارة لهذا الإقليم في كافة الكتب الإفريقية الموسوعية، وتم اعتبار اللغة العربية لغة استعمارية في القانون التأسيسي للاتحاد الإفريقي، وتم استدعاء الصورة السلبية _استعمارية التكوين والنشر– للتاجر العربي، وارتبط الحديث عن الإسلام الوهابي بالإرهاب، وأن الإرهاب موطنه الدول العربي، في الوقت الذي يقتصر فيه الحديث عن الأفارقة في الدول الإفروعربية على "أقباط مصر، والنوبة، والأمازيغ"، وهو تفكير تقسيمي يحاول تفريغ مضمون الهوية الجماعية الإفريقية لتصبح مقصورة على جماعات بعينها، في الوقت الذي تُرفض فيه إصباغ هذه الهوية على الدول ككل[2].

كان من بين المشاكل والدلالات أيضا جملة المشكلات والتحديات التي أصبح يواجهه الدور والمصالح المصرية مع امتدادها الطبيعي في حوض النيل، وأهمها ما ظهر مؤخرا في أحداث ومفاوضات سد النهضة، وتعثير المفاوضات في الكثير من الأحيان، والتي نتجت بالأساس من تراجع الدور والاهتمام المصري في هذه المنطقة، والظروف الداخلية، وهو ما سمح بإطلاق هذا المشروع، والاستمرار في بنائه رغم الاعتراضات المصرية، بل وباتت سيناريوهات عدة مطروحة حتى تحافظ مصر على حصتها المائية[3].

كما ارتبط بتراجع الدور المصري والعربي في القارة الإفريقية أزمات بشأن العديد من الجاليات المسلمة والعربية في أقاليم ودول القارة، كالذي يحدث في مالي وإفريقيا الوسطى، وما حدث من بعض حكومات دول إفريقية من هدم مساجد، ومنع إقامة الشعارات بأخرى، وهو ما يمكن تفسيره في ضوء اتساع الفجوة بين العرب والأفارقة، والظروف التي تمر بها المنطقة العربية، والهجمة الدولية على الإسلام وتصويره كمصدر للإرهاب العربي.

---

1 - Dan Tschirgi, **Turning Point**: **the Arab World's Marginalization and International Security after 9/11** (London: Praeger Security International, 2007), pp. 141-157.

2 – إبراهيم نصر الدين، "تأثير توجهات وسلوك......"، **مرجع سابق**، ص ص. 231 – 232.

3 - Mohamed El Shopky, "The Impact of Water Scarcity on the Egyptian National Security and on the Regional Security in the River Nile Basin", **MA**. **Thesis** (New York: Faculty of the U.S Army, 2012), pp. 56-76.

خاتمة:

ختاما يمكن القول أن تعدد دوائر انتماء الدول الإفروعربية دفع بالبعض إلى تصور أن هناك تعارضا بين تلك الدوائر، على الرغم من أن التكامل هو الأقرب والأكثر فائدة لهذه الدول، ومع التغيرات الدولية، والإقليمية، والداخلية تراجع التأثير، ومظاهر الترابط، والتداخل، والعمل المشترك بين شمال وجنوب الصحراء الإفريقية، وكان من مصلحة الكثير من الأطراف أن تنتشر الرؤى الاستعبادية بين مفكري وجماعات الأفارقة، وفي الوقت نفسه تم جذب الدول الإفروعربية إلى مراكز جذب، ومظاهر، وأسس هوية بعيدة عن تلك الإفريقية، وهو ما ترك العديد من الدلالات والنتائج السلبية على الواقع العربي والإفريقي.

وتعد الحالة المصرية من الحالات الدالة على واقع وأزمة المكون الإفريقي في هوية الدول الإفروعربية، فعلى الرغم من تعدد مظاهر الانتماء المصري للقارة الإفريقية، على المستويات الإثنية، والحضارية، واللغوية، والدينية، والاجتماعية، والجغرافية، والتاريخية، لكن أدت جملة من التغيرات الداخلية، والإقليمية إلى تراجع ودور وتأثير مصر في القارة الإفريقية، وربما في محيطها وامتدادها الجغرافي في حوض النيل، وهو ما ترك أثاره، ودلالاته على علاقات مصر بدول القارة، وظهرت العديد من الإشكاليات، والأزمات بينها وبين دول إفريقية، بل وراح المفكرين والعلماء، والباحثين المصريين ينكرون، أو يتنكرون لقيمة ودور وتأثير المكون الإفريقي في الهوية المصرية الكلية.